

الكتاب الأول

لون هارب من قوس قزح

رواية

منى الشيمى

المجلس الأعلى للثقافة

لون هارب من قوس قزح

منى الشيمي

التصميم الأساسى للغلاف محيى الدين اللباد + أحمد اللباد
لوحة الغلاف / هشام نوار

الكتاب الأول
- ٥٢ -

لون هارب من قوس قزح

رواية

منى الشيمى



٢٠٠٢

الإهـــداء

زوجي
الذي وهبني وقت الكتابة
هيام
أولى الصفقات

منـى الشيمي

- ١ -

ما زلت أرقد هنا ، أعى زمن اللحظة جيداً ، أرقب ما حدث ، وما سوف يحدث ، أنتظر شروق الشمس ؛ لتغرب من جديد مسجونةً فى قالب من القار الأسود[١] ، محنطةً يداىَ إلى قدمىّ ، ومدفونة بعبثية فى مكان رملى ما ! .

- أيتها القوة الكامنة فى مكان ما ، امنحينى مقدار ذرة منك ؛ لكى يعود لجسدى دفؤهُ ولأطرافى الحياة ، فُكّى لسانى كى ينطلق لاهثا ، يشرح لمن حولى خَطأ فادحاً ألمّ بى ، لقد دفنت فى المكان الخطأ ، اتركونى لن أحاول العودة ، لن أطلب شربة ماء أو لقيمات غذاء ، فقط سأنهض ، وأعدو لذلك المكان العالق بالجبل هناك ، إنه لؤلؤة ضمن عقد اللآلئ الذى زيّن تاج الجبل ، مقبرة الحاكم وزوجه الرئيسة عن شمالى ، ومقابر إخوته عن يمينى ، أنا دُرة التاج ، أنا محبوبة الحاكم ، إنه الخطأ الذى قادنى إلى هنا ، صوتى الذى أضجرُ به من حولى ، ليته يصل قوياً لآذان الأحياء ، ليته يصل مستعطفًا زوجى ، كل ما أطلبه سيدى هو العفو ، فهل نضب معين عفوك ، وقد نقشتَ جدران المقبرة بأنك من يعفو عند المقدرة !؟ .

منذ أيام حينما هبت رياح خماسينية ، بعثرت الرمال المتكومة ، فَتحَتْ كوةً أملى للسماء ، تخللت الرمال ذرات هواء لأول مرة منذ

(١) نوع من التحنيط الردىء .

وقت أستطيع أن أحصيه لو ركزت ذاكرتي مرة لكن التركيز لإحصاء ذلك يستعصى عليّ الآن ، كل ما أستطيع أن أفعله هو الانتظار .

تكشف الرمال عن قدميّ ، فهللتا للشمس التي حجبتني عنها الرمال ، لم تكن الشمس بقادرة على أن تنفخ فيهما من ألوهيتها فيتحركا ، تصورت لعدة أيام أنه ربما يأتي أحدهم ويخلصني ، لكن هذه الأمنية كانت صعبة المنال بحق ، رغم ذلك ظل الأمل يرفرف على مخيلتي إلى أن عادت الرياح الساكنة للتحرك ، فعادت الرمال لتغطي أصابعي من جديد .

عادت أصابع قدميّ للاختفاء كلية في الصباح التالي ، وعاد الأمل ليُقْبَر من جديد ، لا أدري كم من الوقت استغرقته ساكنة ، ولكن في هذه الأثناء تسمعت أصواتاً مارة ، ربما كانت هذه الأصوات لمرتحلين عن ضجيج الزمان والمكان ، وربما لمزيد من الغزاة الماكرين فأصوات خيول هؤلاء وهؤلاء لا تختلف كثيرا ، ولكن مطامعهم تختلف تماما . !

تجدد الأمل هذا اليوم ثانية ، من المرجح أن الوقت شتاء ؛ لأن الأمطار تسقط بشدة الآن ، أستطيع أن أستحضر منظر الأمطار وهي تصطدم بالأرض ، وتعرف طريقها إلى الجحور ، ثم تستمر بإصرار ، فتصبح الجحور قنوات رفيعة كحيات تجري تجاه النهر .

جسدي المغطى بطبقة قار ، المخبوء بعبثية ، تساقطت عليه قطرة من ماء المطر ، السكون الطويل أفقدني القدرة على تحديد المكان الحقيقي لسقوطها ، رغم ذلك صارت كل حواسي متيقظة لأي بارقة أمل ، تمنيت أن تصبح القطرة سيلا جارفا يسحبني إلى السطح ، وبعدها إلى " حابي[1] الحاني ، فتتحول معاناتي إلى راحة أبدية .

---

(١) إله النيل عند قدماء المصريين .

أشرقت شمس هذا الصباح ، ومكان تساقط القطرات صار نافذة لأشعة الشمس الواهنة ، انتظرت لأيام على أمل أن يكتشف وجودى أحدهم ، صرت أترقب حركة الطبيعة ، وأعيد مطابقتها بأصواتها داخلى ، ربما تكون فى النهاية أصواتاً بشرية ! .

لا أنكر أن اليأس تسرب إلى أعماقى حينما تنامى إلى سمعى خطوات تعبر بالقرب من مدفنى ، صار جسدى فى حالة ترقب كلية ، أشبه بتلك التى يكتم فيها الشخص أنفاسه ، ترقب من نوع آخر تماماً ، سمعت أحدهم يوكد وجود خبيئة فى هذا المكان .

أجاب الآخر : ما الدليل ؟

عاد الصوت الأول : المياه جميعها تنزلق إلى مكان أشبه بالسرداب أو البئر ! .

الصوت الآخر : ربما تكون أرضًا سبخة .

الصوت الأول : وربما تكون لإحدى المومياوات الثرية فيكون للفقر نهاية .

أدركت أى مصير ينتظرنى ، كثيراً ما كنت أرى الكلاب والذئاب تتنازع فيما بينها إحدى الجثث التى استخرجها اللصوص ، وجردوها مما هو ثمين ، وتركوها فيما بعد للذئاب ، وكثيراً ما دخل أحد الكلاب إلى الدرب وهو قابض على جزء من تلك الجثث ، فتعقّبه الصبية بالرجم .

ولكن بقليل من الهدوء ، ومقارنة ذلك بما آل إليه حال جسدى بدت هذه الأفعال عادية ومقبولة بشكل ما ! .

كانت آخر طبقة من الرمال تلك التى أزالها أحدهم ، تلقفتهم بهدوء بدأ الآخر فى فك لفائف الكتان التى ما زالت مبتلة ، لم يلحظ التعفن

الموجود فى أماكن متفرقة من جسدى ، نهمه الشديد لجذب الـ " إيب - خبر[1] " من أسفل اللفائف ألهاه بشدة عن ذلك ، كما استحوذ على خَاتم ذهبى صنعه لى الصائغ الخاص بالقصر ، لا ، لا تأخذ منى هذا الخاتم .. إنه دليل إمارتى .. تمنيت أن يتركه لى ، لكن !

لا أستطيع أن أصف بالتحديد ذلك الإحساس الذى مسّنى حينما سُرق خاتم هويتى ، صرت كالجثث الفقيرة الملقاة فى مقابر العامة .

كان ما أخذه اللصوص هو كل متعلقاتى وأثمنها ، تمنيت أن تظل الكوة التى حفروها قائمة ، لكن خوف أحدهم من افتضاح الأمر .. جعله يهيل الرمال ثانية ، وبكثرة ، فعاد قرص الشمس ليُحجب من جديد ، وعاد لصوتى صراخه ، أضجر به من حولى ، تسقط نظراتى على جسدى فأتعذب ، لم أكن أدرى هل صرت بمعزل عنه أم أني ملتصقة به طالما تواجد ، تترى أفكار لا أستطيع اختيار أحدها والاقتناع به فتظلنى الحيرة .. !! هل سأظل أتعذب إلى أن أفنى ؟ أم فناء جسدى هو فنائي ؟! لم تفلح تعاليم مدرسى القليلة فى الطفولة لتبصيرى ، صار علىّ ممارسة التجربة حتى النهاية لأعى .

لم يكن من السهل ترويض نفسى على اليأس من جديد .. كان لابد لها من المرور بمراحل متدرجة ؛ لتصل إلى مرحلة اليأس الكاملة ، والتى قد تستمر ، خاصة وأن اللصوص أهالوا كميات زائدة من الرمال ، وبخصوص الأمطار تسربت قطرات وحيدة عدة مرات ، أدركت بعدها إلى أى مدى صرت أنا بالعمق .

---

(١) إيب - خِبر = جعران القلب .

يمرح الدود بتلذذ في جانب بطني أسفل اللفائف ، أستطيع أن أحدد حجم التلف الذي أصابني بحركات الدود الدائمة النهمة ، أتألم وأتألم ، أين مني هذا الجسد البض الذي لانت تفاصيله تحت ثوب كتاني أبيض حينما تهاديت به مرة في الدروب وقد لانت معه جموع الشباب ، وهم يحصدون القمح في البعيد ، وكاهن المعبد الذي استطاع أن يخفي نظرات تيهه بي بمحاولاته الاستغراق في أداء الطقوس ؟!

كانت نظراتهم من ذلك النوع الذي يفجر شيئا بداخلي قبل أوانه ، ويصل به أحيانا لمرحلة الفوران .

ضربتني أمي في إحدى الصباحات الربيعية لإصراري على ارتداء هذا الثوب الذي كان للأخريات حلماً ، لا أنكر أنني حاولت مراراً أن أدخره ، خاصة وأنه كان حلمي لأمد طويل ، لكن فكرة وجود ثوب يبرز جمال تكويني ولا ألبسه كانت مستحيلة ، حقيقة كنت أحتال : لألبسه ، وحينما وصل الثوب إلى منتصف عمره ، كفت أمي تماما عن نهرها لي بشأنه ، فصار يعرف بي ، وأعرف به !

رغم ذلك ظلت أمي تدبر وتحتال إلى أن وفرت لي ثوباً آخر له نفس الصدى للمناسبات ، إلى أن فاجأتني به يوماً قبل الاحتفال الكبير بـ " حابي " ، كان بنفس روعة الثوب السابق إضافة إلى كونه جديداً .

استطعت أن أنال إعجاب المعبد لدرجة جعلتهم يُجمعون على اختياري لأكون عروس النيل هذا الموسم ، ويمنحوني شرف إلقاء تلك التعويذة .. التي يُعدها الكهنة بكل دقة اللغة ؛ ليأتي فيضان العام القادم كما يتمنى الفلاحون .

لم تكن تلك المهمة هي ما يشغلني ، ولكن ما شغلني هي تلك المسافة التي سأسيرها أمام الجمهور ، ربما يتقدم لي بعدها أحد النبلاء

طالباً الزواج بى ، فالانتقال من الدروب الفقيرة إلى أحياء النبلاء كان أمل معظم الفتيات ، لكن أفعالهن لتحقيق ذلك كانت متوقفة تماماً ، فى الواقع هناك فتيات يتفوقن فى جمالهن ، ولكنهن لم يصلن لتلك المرحلة التى تمكنهن من إبراز هذا الجمال للناظرين ، كما أن الفقر دوماً ما يُبقى الجمال منفياً . أو أن أنال شرف العمل كممثلة للإقليم ؛ لأن ذلك كان فى ظاهره يبدو أرستقراطياً ، قامة ممشوقة ومرفوعة الرأس أمام الحاكم ، نظراتى مصوبة إليه مباشرة دون خجل الأنوثة الذى أمقته .

استطاع الثوب أن يحكم خطواتى ، فخرجت متزنة ، أظهرت ثنيات الثوب نحافة الخصر ، فبدا ممشوقاً ، وانفرطت تلك الثنيات أسفل الخصر ، فظهر الامتلاء المستحب لهذه المنطقة ، كما أن أمى أعدت لى باروكة مضفورة بعناية ومتوجة بهريم مخروطى الشكل من الدهان المعطرة ، فما كدت أخطو عدة خطوات ، على ذلك الممشى - المعد سلفاً والمزينُ بالورد إلى النهر - حتى زايلنى الخوف ، فسرت مختالة .

ألقيت بتلك التعويذة التى أعطاها لى الكاهن مع تعويذتى الخاصة ، والتى سطرتها على ورقة صغيرة بأمنيات ربما تتحقق ، عدت أدراجى إلى المقصورة ، وقد ساحت دهان الهريم ، فغطى المكان أريج فواح ملأنى ثقة ، فتقدمت إلى الكاهن الأكبر الذى ربت على رأسى وباركنى وانصرفتُ إلى مكانى وسط الفتيات بنفس رشاقة الخطوات السابقة ورقتها ، فكنت أشبه بالفراشة التى تجيد الرقص حول الضوء دونما احتراق .

ما كدت أجلس حتى تعالت أصوات الفتيات تغنى على قهقهة الصنوج بالخلف :

" هو النيل الذى يفيض على البلد

فتمتلئ مخازن الحبوب ، وتزدحم

المستودعات ، وتتوافر الحاجات

إنه يضع نفسه فى خدمة الأمانى ،

فيجيبها من غير أن ينقص منها

شيئا ، لا يدفع له الناس ضريبة ،

ولا يقدمون له الهدايا ، ولا

يفتنونه بالكلمات ذات الأسرار الخفية "

كان الاندماج مع الأغنية أمراً صعبًا ، بدا الأمر كلية فوق مقدرتى ، رغم ذلك حاولت الاحتفاظ بابتسامة خلتها جذابة ولكن عقلى المحتفظ بتعويذته الخاصة أعادها علىّ مراراً :

" أيا أيها الإله الحانى ، يامن

تخصب الأرض بكل قوة

الذكور ، فتنجب السنابل ،

امنحنى ما أريد ، إنك

لمدرك ما أريد "

حينما تمتمت شفتاى بهذه الكلمات ، شعرت كما لو كنت أتخبط بدهاليز المعبد المعتمة ، والتى دوما ما يتحدث عنها بالخوف العامة المحظور عليهم الوصول إليها ، والتى اكتفوا بالنوم فى ظل أسوارها

الخارجية أثناء قيظ الظهيرة ، وفى فترات الراحة التى يمنحها الكاهن الأكبر للعاملين والفلاحين فى وقف المعبد ، كانت هى الرهبة التى نفثت فى شراييني من ريحها ، فأبعدتنى لبرهة عن مكان الاحتفال .

- ٢ -

أعلم أنه أن النهار ، بمقدور الشمس أن تنفذ إلى باطن الأرض ، لكن ما الفائدة لمقعدة مثلى مكبلة بالأغلال ؟ أظلم الموت أحيانا ، إنها حياة من نوع آخر ، ربما حياة خاصة بالموتى - إن جاز ذلك - حياة لا يُدركها من هم أحياء .

لم تُزايلنى مقدرتى فى شرح حالتى ، ولكنى لا أجزم بأنها ستلازمنى إذا ما بدأت فى شرحها لعالم الأحياء ، كل ما أستطيع أن أعرفه هو أنه لابد من المرور الشخصي على الموت ؛ لكى يستطيع المرء شرحها ، أما الزمن ، لم أفقد القدرة على تذكر الماضي القريب والبعيد على السواء ، ولكن الزمن التالى لموتى لم أخمنه أبدا وربما هذه هى إحدى حالات التدرج التى قد أصل بعدها إلى مرحلة العجز الكامل .

تخيرت جانب النهر الحانى مكاناً ألعب فيه أنا وأترابى ، نحفر قناة صغيرة ننقل إليها المياه من النهر بأكفنا الصغيرة ، ونحزن من الأرض التى تسبقنا فتبتلعها ، ثم ننسى الحزن بكل عنفوان الطفولة ونفرح بالطين فنشكل أحلامنا فتيات وفتيانًا يتمازحون ، أو نلعب بـ " الحذروف[1] " ، أحيانًا أخرى تُشكل كلا منا رضيعًا تقربه إلى صدرها الصغير ، ونتشابك فى مجموعات صغيرة نلعب بعرائسنا الخشبية ، أو تلك التى نصنعها بأنفسنا من القماش العزيز والقش ، حقيقة فكرة

---

(١) النحلة .

الثوب في هذا الوقت لم تكن قد اختمرت بنفسى قط ، فجميع أترابى عرايا ، أعضاؤهن تهلل للشمس ، ولم يكن شيء ما بجسدى يقلقنى كما أقلقنى فيما بعد .

كنت أنا وأترابى ننمو ببطء وبغفوة منا تحت الشمس ، نجتمع فيعلو ضجيجنا ، ونتشابك فتخرج إحدى الأمهات تزعق فيتشتت الجمع ويتلاشى ، نعود أنا وأترابى إلى الدروب وقد أعدت أمى غذاء أخى ، أذهب به إلى الطريق الطويل ، حيث الشمس تجلد بسياطها الأرض ، فتحترق وتلهب قدمى ، فأتعجب !

- كيف للإله " رع[1] " أن يكون حانيًا ، وقدماى متورمتان هكذا ؟!

اتسمت خطواتى بالبطء قرب الوصول ، كان لابد من العروج إلى المرتفع حيث مقبرة الحاكم التى يقوم أخى بنقشها ؛ لكى تجعل طريقه للفردوس مفروشاً بالأبسطة ، فيسجل أنه أكرم العامة ، وأهدى إليهم الفطائر فى الأعياد ، وخزن القمح للفقراء فى السنين العجاف ، ولم ينظر لامرأة إلا وكانت من خاصته .

لا أنكر أن هذه النقوش ونقوش المعبد أيضاً بهرتنى وقتها ، وألبست صاحبها بنفسى ملبس الوقار .

كان لابد من التلكؤ لجمع الأحجار التى باحتكاكها تطلق شراراً ، للاستعانة بها فى اللعب ، وإيقاد النار لإنضاج طعامنا ، حينما تتلبسنا أرواح الأمهات ، تسرق إحدانا قليلا من الدقيق ندمجه مع المياه ،

---

(١) إله الشمس عند قدماء المصريين .

فيصير عجيناً ننضجه بإلقائه في تلك النيران ، حينما وصلت إلى أخى في المقبرة ، صفعني بقوة يده الكبيرة ؛ لتأخرى ، فتركت يده ألسنة من اللهب على وجهى حيناً ، تناول ما بيدى ، وجلس يأكل وقتاً اتاح لى التجول في ردهات المقبرة .

فكان منظر الحاكم مهيباً وهو واقف في واجهة الداخل بحجم يفوق أحجام العامة حوله ، يرتدى مئزراً قصيراً ممنطقاً بحزام مربوط ومدلى من الأمام ، تظهر رشاقته بوضوح ، تتقدم إحدى قدميه قليلاً عن الأخرى لتلقى القرابين من ممثلات الإقليم اللاتى ظهرن أمامه بقامات طبيعية ممشوقة ، يرتدين الثياب الكتانية .

أبدع النقاشون في نقش ممثلات الإقليم اللاتى يقدمن القرابين للحاكم :

واحدة تحمل الأرغفة التى يدخل في خبزها العسل ، والأرغفة المعجونة باللبن ، وتلك تحمل جرار الجعة المغلقة المختومة بالأدعية للحاكم ، وفى المقدمة إحدى ممثلات الإقليم وقد قدمت للحاكم زهرة لوتس زرقاء يانعة .

اختلفت مناظر الحاكم ما بين متلقٍّ للقرابين ومستمتع مع زوجته وأولاده في رحلة صيد ، وقعت نظراتي علي فتياته الصغيرات عند قدميه وقد ارتدين الثياب الطويلة الضيقة ، تشف عن سيقاهن وقد ضفرن شعورهن ، يلعبن الكرة التى استوقفتنى طويلا ، ولم أدرِ من النقوش تفاصيل اللعب بها ، أما باقى المناظر تجاه اليمين فكانت مرسومة فقط ، لم تقربها يد النقاش ، ولم تكن الألوان قد استخدمت قط .

- ٣ -

ما جدوى الملل من الرقاد ؟ صرنا متلازمين على مدار زمن طويل ، استطعت أن أقهره حيناً بذكرياتى ، واستطاع أن يقهرنى أحيانا بصمته الدائم ، لم يشد انتباهى شيء على مدى زمن طويل ، حفيف الرياح الخافت ودبيب خطوات المارة بالقرب صارا مؤنسين لوحدتى الطويلة ، صار الجسد إلى ذبوله ، وجفافه ببطء ، وبفعل عوامل الطبيعة العادية ، صرت أشبه بعود الحطب الجاف ، بعد أن قضى الدود تماماً على عوامل الحياة بالجسد غادره باحثاً عن مصدر آخر للحياة فغادرنى شيء كان يشغلنى .

استطاع الرقاد المتواصل أن يجبرنى على التذكُّر واستطاع هذا القرار المكين أن ينفينى عن أحداث جديدة تؤرق بداخلى الأفكار ، ويلازمنى القلق دونما معرفة لأسبابه الحقيقية .

ما زالت بقايا الطفولة ، لم يستدر الجسد بعد ، فقط شعيرات تنبت تثير همس العجائز الجالسات فى ظلال الدرب ، يغزلن ذكرياتهن حديثاً طويلاً وممتعاً ، تجلس جدتى معهن بوجه صار صغيراً ، التجاعيد تعيد رسم ملامح وجهها ، ولفترة محدودة تبدأ بعدها فى الزيادة لتعيد تشكيل الملامح مرة أخرى ، ربما لم يفارقها إحساس المرأة الأول ، لكن الخبرة أضافت له الكثير !

استطعت أن أحرك فيهن شيئا هذه الظهيرة وأنا أمرق بينهن متجهة إلى داخل المنزل ، ولكنى لم أستطع التوقف لسماع ما بصقته شفاههن ، فقط خمنته .

واجهني الهواء البارد المنبعث من ظلال المنزل ، استندت إلى حائط قريب من الباب المؤدى إلى الحقول المزروعة بالقمح ، فى هذا الوقت من السنة ، لم يكن القمح قد ارتفع كثيراً ، لكنه بشر بالوفرة ، فانعكس ذلك على قلوب العامة .

قررت أمي أن تزوج أخي هذا الموسم ، لينعم هو وزوجته بالرخاء الذى سوف يعم هذا العام ، لم تغفل فى اختيارها مظاهر الصحة ؛ لتساعدها فى أعمال المنزل التى تحتاج إلى مهارة خاصة ، من إدارة الرحى ؛ لطحن الحبوب ، وخبز الأرغفة ، وعصر الكروم ، وعمل النبيذ لليالى الباردة ، وغزل الكتان الذى يعطيه الحاكم له نظير عمل أخي فى المقبرة ، وحياكته مآزر له ، أما إحضار المياه من النهر وغسل الأوانى هناك فتلك مهمة تمنيت أن توكل لى كلية .

لم تبحث أمي طويلاً عنها ، زخر الدرب بالفتيات اللاتى خطون لهذا السن ، انتقلت العروس من منزلها إلى منزلنا بمباركة الربة " حتحور[1] " ، ودعواتها لهما بالإنجاب ، كنت أطيل النظر للعروس ، صار بها شيئا تعالت به عن باقى الفتيات ، أراها وهى تمشط شعرها بذلك المشط الخشبى الملون المنحوت ببراعة على شكل " باستت[2] " القطة ، ترتفع يدها إلى شعرها تمشطه وحينما أختفى عن الناظرين في السطح ، أمشط شعرى بيدي ، وأتمايل ، فيميل شعرى معى قليلاً ، فأفرح ، أسمع أمي تناديني ، فأضفره سريعاً ، وأسقط لها ، تثقلنى بأعباء المنزل المتعددة ، تنفث في جسدي الصغير ما تركه أخي من فراغ فى نفسها ، أتحمل صاغرة ، وأبصر أعماقى وهى تتلون بالحزن جزءاً يلي الآخر .

---

(١) البقرة ربة الخصوبة .

(٢) القطة ربة الدلال .

ندرت فترات خروجي من المنزل إلا قليلاً ، أغافلهم واستجيب لنداء الصغيرات ، فنذهب إلى مزرعة كروم الحاكم ، تتلمس بعضا منه ، القرد يعصر الكروم بدهسه إياها في قدور عظيمة ذات فتحات ، يهرب السائل من تلك الفتحات إلى قدور أخرى ، نلقى الأحجار على القرد ، فيلقى لنا بحبات الكروم ، نتلقفها سعداء إلى أن يشعر بوجودنا الحارس ، فيتعقبنا ، يزداد ضجيجنا وضحكاتنا ، كأننا نطلب المطاردة أكثر مما نطلب الكروم .

استطعت أنا والصبايا أن نغوص في زبد الطين بأقدامنا دونما انزلاق ، عبرنا تلك الأرض التي انحسر عنها الفيضان بفرح ، هلل الجميع بحق عندما عبرت ولم أسقط ، اقتطعت جزءاً من الطين ، ودمجته بحبوب القمح الوفيرة ، ثم بدأنا تلك المسابقة في عصر هذا اليوم ، استطعت أن أشكل " أوزوريس[1] " بمنتهى الدقة ، عدت للمنزل متسللة وقد خبأته خلف صومعة الغلال بسطح المنزل ، فاجأتنى زوجة أخي بالتقريع والصفع لهروبى من أعمال المنزل الكثيرة ، كنت قد تجرأت قليلاً لمواجهة الضرب

قلت لها : أنت هنا لتساعدى أمي في أعمال المنزل .

أجابت وقد تنمّرت :

- أنا هنا زوجة أخيك فقط .

عدت بصوتي وقد تراجعت جراءتي :

- ولكنك يجب أن تعملي .

عادت بصوتها :

---

(١) إله الموتى .

- أنا هنا زوجة أخيك فقط ، وأعمال المنزل لك ولأمك أن أردتما أن تعيشا بسلام .

تماديت في غمرها بنظراتي النارية ، لكن تلك النظرات انطفأت على جسدها ، وحينما ظهر أخي عند الباب كانت نظرات انتصارها تغمر المكان ، أما أعماقي الملتهبة فقد انطفأت حينما أينعت البذور ، ونمت على جسد التمثال والذى سأتفوق به على جميع الصبايا .

راقبت التمثال أربعة أيام كاملة ، تأملت النبات وهو يشق جسده ، ويتحرر كأنى أتحرر معه من كل قيد ، نال التمثال إعجاب الصبايا ، وتفوقت عليهن جميعاً ، أحسست وقتها أننى تفوقت على زوجة أخي ربما لأننى شعرت بأننى مقهورة كما الأرض المحروقة ، وإننى أنتظر شيئاً ما يخلصنى ، كما الماء بالنسبة لتلك الأرض ، وربما نفسي وما تطلقه من تصرفات لا أفهمها أحياناً .

- ٤ -

عادت الأيام أكثر طولاً بعد الاحتفال ، صرت استكشف ما حولى بعين أخرى ، أضيق بصديقاتي العرايا ، بجدران المنزل الطينية ، والحصير الشائك على المقاعد والأرضية ، أهرب دوماً إلى حُجرة السطح استأنس بالوحدة ، أمارس ما أتمناه فى ساحة خيالى الواسعة ، ابتعدت تماماً عن زوجة أخي ، لم يعد يُريحنى مضايقتها ، وإثارة لفحة النار داخلها ، أحست الآن بصيرورة المنزل لها ، وأنى كأحد ثوابته .

آثرت أمي السلامة ومالت لصف زوجة أخي مخافة عقابها ، كثيراً ما نصحتنى أمى بمسايرة ما تطلبه منى من أعمال المنزل ، ولكن هذه الرغبات وغيرها لم تجد صدى في نفسى ، لم يستطع جسدى تنفيذ أوامر عقلى ، أصبحا منفصلين تماماً ، يفكر عقلى ، ويمرح ، ولكنه يمارس ذلك كله بعيداً عن ذلك الجسد .

اتخذت أمي مجلسها بالطابق الأرضي ، فصرت وحيدة تماما فى حجرة السطح الخالية إلا من جسدي الملقى وأفكارى الجائلة ، تخيلت بعد الاحتفال أنه ربما يجيء أحد النبلاء ويتزوجني ، أو أن أعمل كممثلة للإقليم عند الحاكم ، ولكن تخيلاتى بهذا الشأن تضاءلت تماما ، صرت ساخطة على هؤلاء وهؤلاء ، إحساس مغاير كلية لما أحسست به هناك عند النهر ؛ تملكنى وقتها ذلك الإحساس ، وكأنى إحدى الأميرات ترفل فى حلة ملكية ، وتنظر لحاشيتها من علٍ .

أستطيع الآن أن أكتب النصوص عن الإحساس بالمهانة المتولد عن تجاهل الآخرين لى .

انزاحت آلام الليل عن نهار خلته عاديا ، بدأت الحركة تدب فى المنزل ، أخي وهو يعد الألوان للانتهاء من تلك المقبرة العالقة بالجبل ، تذكرت أيام بدأ في نقشها ، كنت صغيرة ، وكان لليوم عندى وقته فقط ، دوما ما كنت أذهب بغدائه هناك ، استطلع المناظر المنقوشة على الحوائط فتفتح باب التأمل عندى على مصراعيه .

طرقات مقبض الباب تحت دقات متتالية أيقظنى من غفوتى ، سبقنى دمى من مكمنه ليتدفق بشدة إلى رأسي ، بابنا لا يطرقه أحد فى هذا الوقت من الصباح !! هذا ما طرأ على ذهنى ، وجعل الدم يكتسح شرايينى كفيضان ، جريت تجاه الحائط الشبكي المصنوع من الآجر لينفذ منه الضوء إلى الحجرة ، استطلع الطارق ، ازدار اندفاع الدم أكثر لدرجة جعلتنى للوهلة الأولى لا أرى شيئا ، برهة واستجمعنى من شتاتى الشاب حليق الرأس الذى يرتدى المئزر القصير ، كان وضاء الوجه ، هيبة تنبعث م أجزاء جسده ، وتنساب مع حديثه الهادىء ، لم يكن ليعوق صوته شيء إلى أذنى ، حقيقة حضوره فى هذا الوقت من الصباح نبه حواسى لأحد الخواطر التي تدارستها ونفسى فى السابق ، ولكنى لم أتوقف عندها ، وتطلعت إلى ما هو أكبر ، كان الشاب يريدنى .

تنازعتنى الأفكار فى المسافة التى بين تواجدى ومكانه ، نزلت درجات السلم مستندة للحائط مهابة السقوط ، مرتدية مئزراً محزوماً عند الخصر ، مصنوعا من البردى ، بينما نهداى منفلتان نافران .

التحقت بالعمل فى الـ " بر - نثر[1] " بتكليف من الكاهن الأكبر كإحدى المحافظات على الأدوات التى تخدم إقامة الشعائر ، وكان من

---

(١)بيت الإله : " المعبد " .

جاءنى أحد المتدربين على الخدمة الكهنوتية بالمعبد ، ومن الدارسين والمرتلين لتلك العلوم بدار الحياة[1] .

اختارنى الكاهن مع من اختارهن لهذه المهمة ، شرح لنا هذا الصباح شروط القيام بهذا العمل من طهارة ، وأمانة ، وقدر من العلم نحرص أن ننميه باستمرارية ، ألقى كلمته علينا جميعاً فى بهو المعبد الفسيح المزدان بصفين من الأعمدة العالية المتوجة بزهرة اللوتس المتفتحة ، تصفحت شمس الصباح وجوهنا ، وتصفحنا بدورنا بعضنا ، لم تكن تلك الوجوه غريبة عنى ، كنا نلتقى فى ملعبنا ، أو بمدرسة المعبد فى السابق .

انفلت زمام تفكيرى بعيدا عن بهو الاجتماع لأتذكر تلك النظرة التى رشقتُ بها زوجة أخى عند خروجى ، كنت أعلم أن وقعها بنفسها لذو بأس شديد ، وأعلم أيضا أنه لابد للقوة أن تسكن مكامن النفس ؛ لكى أستطيع أن أنسج نظرة كتلك ، ولكنى بداخلى لم أكن راضية تماماً عن قوتى المزعومة ، كنت بينى وبين نفسى خادمة ، وإن أطلق عليها خادمة الإله .

أعادنى الضجيج من أفكارى ، لم أدرك علام الضجيج ؟، ولكنى ركزت مع الكاهن الأكبر حينما وزع الأعمال على الأمكنة ، صار لى حجرة صغيرة من تلك الحجرات المتعددة الزاخرة بالأدوات الخاصة بالطقوس أشرف عليها .

كانت حياة جديدة تماماً تلك التى خطوت إليه ، يتطلب عملى تنظيف الأوانى وتلميعها ؛ لكى يستخدمها الكهنة فى طقوسهم اليومية ،

---

(١) المكتبة .

والتى تبدأ عند مطلع الفجر ، تبدأ قبلها خطواتى فى دق الأرض من المنز ل باتجاه المعبد ، أخرج تلك الأوانى وأنظفها بعناية ، أثناء ذلك يتطهر الكهنة فى حجراتهم ، ويذهب الكاهن الأكبر إلى المسلة القائمة بشموخ فى الفناء المكشوف لاستقبال الإله بالشعائر وتلاوة ترنيمة الصباح التى تعلو وتعلو فى أرجاء المعبد الفسيح ، ويرددها الكهنة ورائه :

" سلامًا " رع " عندما تشرق
فى الأفق الشرقى للسماء
يا سيد السماء وملك الآلهة
يا ذا الأسماء الكثيرة
يا جميل الطلعة ، إنك أول الوجوه
يا من يعبد ويذكر اسمك فى البلاد
يا سيد القاعات العظمى فى المعابد
يا من أقام قانونه فى القطرين "

يرتد الصوت صدى لأذنى بعدما اصطدم بجدران البهو العالية ، عند ذلك يحمل الخدم الأوانى ويضعون بها طعام الإفطار لتمثال الإلهة حتحور ، الذى تزين ، وارتدى ملابسه ، وتعطر ، تنتهى مهمتى والباقين ، فنستريح فى فناء المعبد الخارجى تحت شمس الشتاء الدافئة نتسامر أو يدخل بعض منا إلى دار الحياة ، ممن اختارهم الكاهن الأكبر لاجتهادهم وإعدادهم لوظيفة أعلى ، نترك الطعام أمام التمثال يتناول منه ما يريد إلى أن يوزّع الكاهن باقيه علينا .

لم يكن العمل شاقا فى الظهيرة ، كنت أعد المباخر فقط وقبل الذهاب بها للتمثال فى الهيكل ، أو إلى الفناء المكشوف حيث المسلة ، أدعو لنفسى بما هو أفضل ، على دعواتى تتسلق دخان البخور فى رحلة عروجه .

صرّح لى الكاهن الأكبر بالعودة للمنزل بعد الظهيرة ، على أن أعود للعمل قبل الغروب ، ولكن فى ظل سباق إثبات جودة العمل ومحبته ، فضلت البقاء فى المعبد ، أستمع حيناً إلى حديث الكاهن المرتل وفيض نعم الإله على عباده ، أو ألمع أدواتى وأضفى عليها البهاء ، وحيناً آخر تجذبنى نغمات حجرة الموسيقى ، فأتقوقع جالسة قريبة منها .

أذابت جلساتى بالقرب من حجرة الموسيقى الملحقة بالمعبد جمود نفسى ، يدرب الكاهن - المخصص لذلك - الفتيات على عزف الآلات المختلفة ، فتنبعث موسيقى حالمة ، تتسرب من مسام جلدى بعذوبة ، وتترقرق فى جدول نفسى ، أترك لنفسى عنانها ، فترتوى بها بكل قوة الظمأ إليها .

اتخذ مجلسى عمقاً أكبر فى حجرة الموسيقى هذا النهار ، انفلت حصار أدبى عن يدى وهى تمتد إلى الهارب[1] وتوتره ، تنبعث نغماته فأفزع ، تتحول عينى إلى وجه الكاهن تستطلع ملامحه ، كانت ملامحه مشجعة ، اقترب قائلا :

---

(١) آلة وترية .

- ملامحك جميلة أيتها الفتاة .

ابتسمت وأومأت ، فعاد ، وقال :

- أيعجبك الهارب ؟

قلت له : تنبعث منه نغمات حزينة ، وتنكأ الجراح

فقال : الموسيقى يا ابنتى شافية ، تجرعيها كدواء ، تُنسى الهموم ، وتُسكن النفس بروح السكنية .

زفرت أنفاسى ، اعتبرها رداً ، فعاد قائلا :

- هل تريدين التدريب معنا ؟

انطلقت كل ملامحى تجيب :

- ليتك تجدنى مناسبة !

قال بابتسامة رقراقة :

- تستطيعين التدريب معنا فى أوقات راحتك ، فتسطرين بذلك رأينا فيك . وأكمل

- إن رأى الناس فيك يا ابنتى من فعلك ، فاجعلى آرا ءهم ساطعة. قال كلامه واستدار ، وتتبعه نظراتى إلى أن ذهب ، وظلّت كلمة ابنتى عالقة بنفسى وقتاً .

جاءتنى المشرفة على تدريب الفتيات ، تناولت يدى ؛ لأتعرف على الآلات المختلفة ، ونصحتنى باختيار الصلاصل[1] التى لا تحتاج

---

(١) الشخاليل .

إلا الانتظام فى رنّاتها ، على أن تكون عيناى على عازفات الهارب ؛ تلمسًا للتقليد .

استغرقنى العمل كلية فى المعبد ، تنازعنى بقوة مع أفكارى ، وانتصر ، صرت أسير فى دروب المعبد دون رهبة ، انطبعت الردهات الداخلية والدهاليز بمخيلتى ، لم يعد الانطباع عنها مدلهماً بعد أن اكتشفت دهاليز الرقىّ فيه ، وخطوت فيه أولى خطواتى .

كست ظلال جدران المعبد معظم أرضيته ، وسبح المعبد فى انشغاله بإعداد طقوس العشاء ، تناغمت الظلال مع أشعة الشمس المنكسرة علي الأرضية إلى أن تداخلا وذابا ، عم الظلام ، أشعل العاملون الرائحون والغادون المسارج ، بدأت فى إعداد عُدتى تأهبًا لساعة العمل القصوى والأخيرة لهذا اليوم ، تقدم الكاهن الأكبر لناووس التمثال يستكشف بهاءه ، بعدها سار العمل بجدية لنهايته دون تقصير من أحدنا ، وزع الكاهن علينا طعامنا ، ولينا وجوهنا شطر الباب فى انفراجة المساء إلى دورنا .

انزاح ستار انشغالى ، وأنا أخطو خارج المعبد عن خيالات أمى وأخى وزوجته ، وهم يتحلقون حول عشائهم دون انتظارى ، فتضايقت ، خطوت عتبة المنزل من الباب المطل على زروع الكتان الواسعة فوجدتهم يلتفون حول طعامهم دون انتظارى فتأكد ضيقى ، ارتقيتُ الدرج الأعلى حيث حجرتى ، ولم أنبس بكلمة ، ولكن التساؤلات كانت ترتع بعنف داخلى ، كيف لأمى أن تنصاع لما تؤمر ؟! ، وكيف لأخى أن يشعر تجاه أولاده بالأبوة ، ولا يشعر تجاهى بمسئولية الأخوة ؟

تسابقت الأيام تغزل نفس تكرارية الأيام السابقة ومللها ، إلا من أوقات جميلة كنت فيها أجدّ لدراسة التعامل مع أوتار الهارب ، وأمارس بانتظام تذكير الخرز بقيده داخل المصلصلة ، فتخرج نغماته حادة منتظمة .

- ٥ -

نبش ونبش ، ووصل إلي ، يد مدربة بعناية ، تترفق بى كأنى طفل صغير ، تحمل أجزاء منى إلى سلة الخوص الموضوعة إلى جانب الحفرة بأعلى ، الشمس قوية وناصعة ، بعد أن كانت تصل إليّ واهنة متأوهة ، الحمار النظيف يقف بالقرب ، يتشمم الأرض بأمل يائس ، ينفث أنفاسه دوائر غبار لا تلبث أن تعود للأرض ، مفروش ظهره بخرج ذى جيوب كثيرة ، قليل من الوقت وكانت اليد قد جمعت من أجزائى الكثير ، صرت كومة فى تلك السلة هناك ، حملنى على ظهر حماره الهادئ ، وضعنى بين ساقيه مخافة السقوط ، اتخذت مكانى ، كومة من عظام جافة مغطاة بطبقة من قار أسود !

فى الطريق قابلتنى دروب القرية ، كانت أذرع اللعب الممتدة فى الصغر ، وترابها الذى خضب قدمى ، وروائحها الخاصة والنفاذة كأنها البهارات .

ترفق بى أيها الشيخ ، مر على تلك البقعة من الأرض التى اقتطعت منها جزءاً للاحتفال بأوزير قديما ، تمهل و لا تقف ، أتمنى أن تمتلئ عينى بصور الماضى البعيد ، ربما جزء منها عالق هناك ، ربما حين ترانى الأرض تتذكر أنى بعض طينها . ليته يسمعنى ، يعلو صوتي ويعلو ، هنا مدرستى القديمة باقية كشاهد قبر لأفعالى ، أين شقفتى[1] تلك التى سطرت عليها اسمى حينما تعلمته ؟ " ميريت " ترى هل بقى على الأرض أحد يذكرنى ؟ هل تجتمع أرواحهم على صراخى ؟

---

(١) جزء من جرار الفخار ، استخدم للكتابة .

تمهل أيها الشيخ هنا قرب النهر الحانى ، حقل ملعبى مع الصغيرات ، أين ندائهن ؟ كيف أستجمع أصواتهن المبعثرة فى الهواء ، فأعيد تركيبها ، وإطلاقها مرة أخرى قوية مجلجلة ؟!

لا .. لا تعرج من هذا الطريق تمهل ، أما وقد عرجت إلى بركة الماء قرب المنازل ، حيث الكتان الراقد فى الماء ، وأمى وهى تستعجل المحاق ، نذهب معاً وقد برز نهداى ، واستدار الجسد قليلاً ، تحثنى على السير ، وحينما نفعل تسطر خطواتنا سجلاً حالكاً :

- كيف لنا بالسرقة يا أمى لو افتضح أمرنا ؟!

- اصمتى .. ألم تكن فكرة عمل الثوب فكرتك ؟

- نعم ولكن السرقة ....

قاطعنى صوتها محذراً :

- قلت لك اصمتى .. أما وقد استدار جسدك ؛ تحولت عيون الفتيان إليه

اتسعت ارتعاشات يدى لتشملنى ، قلت لها :

- تراجعت الآن ، فأنا قليلة الخروج من المنزل .

- ولكنى لا أريد لك البقاء به ، خروجك سوف يتيح لأحدهم رؤيتك ، فيتقدم ويتزوجك .

- ولكنها السرقة .

أجابت بحدة :

- ولكنه الستر .

رغم ردها الحاد عاودت الحديث :

- ليتنا نعود يا أمى .

ردتْ بنفس الحدة السابقة ، وقد علا صوتها ينهانى :

- قلت لك اصمتى .

صمتُ ، ولكن قلقي وجد له منافذ أخرى ؛ فارتعشت يداي ، صارت خطواتي ثقيلة حتى بركة المياه ، استوقفتني أمي بإشارة من يدها ، بدأتْ في الانحدار مع الأرض للمياه ، رغم ستار الليل المسدل بقوة لم يهربْ أيٌ من مشاهد الموقف ، انطبعت في مخيّلتي كشيء خالد .

وقفت أمي عند حافة البركة النائمة ، وقد ظهرت صورتها على صفحة المياه شاهد عيان لما تفعله ، هربت تلك الصورة حينما بدأت أمي في سحب حزم الكتان الراقدة ، كأنها ترفض دور الشاهد ، ناولتني إياها ، وسحبت لها أخرى ، ثم عاودنا السير باتجاه المنزل .

استطاعت أمي إخفاء حزمتي الكتان في الحجرة المهدمة بالسطح ، في الصباح أحضرت قوالب الآجر فصنعت حائطا شبكيا ليحجب سرنا عن الجيران ، أما زوجة أخي فلم تهتم بما نفعله بأعلى ، طالما أننا نفسح لها مجالاً لتملك الدور الأرضي .

استعاضت أمي عن نقع الكتان برشه بالماء ، رصت عيدان الكتان بطول أرضية الحجرة ، وحرصت على عدم جفافه ، حتى تتآكل قشرته الخارجية تماماً .

كان للمحاق يوم وينير السماء الهلال ثم القمر ، وكان لابد لي وأمي من رحلة أخرى ، أحمل فيها قلبي الصغير على كفي كلما سقط وتهاوى خوفاً .

لمحت ارتعاشة يد أمي بلحظي ، ولكن لساني لم يجرؤ على مكاشفتها بذلك ، فقط تذكرت حديثها في الليلة السابقة :

– خروجك سوف يتيح لك الزواج ، ولي التخلص منك . فآثرت الصمت ، ولكني لم أستطع مطاردة الأفكار طويلاً ، أبي الذي ذهب شمالاً ولم يعد ، وأمي وهي تعاني لتوفر لنا قوت اليوم بالكاد ، وأخي الذي يجرب يده الكبيرة في جسدي النحيل .

ابتعدت عن منازل القرية قليلاً ، ولكن عبقها عالق بالهواء ، لمحت الجبل يتهادى فى البعيد بشموخ ، إنه مكانى ، عرج بى أيها الشيخ إلى مستقرى هناك ، تلك المقبرة الرائعة التى تتوسط مقابر الأثرياء تخصنى ، أنا التى أمرت بنحتها ونقشها ، وجلبت لأثاثها خشب الأرز من فينيقيا[1] البعيدة ، أنا التى استقدمت الصناع المهرة من العاصمة فى الشمال ، وأمرت لهم بمكانها لتكون درة تاج الجبل ، تستطيع أيها الشيخ التأكد من ذلك بالنظر فى مناظر جدرانها ، لقد أمرتهم فصورونى أثناء رحلات صيدى للفيوم الجميلة ، وصورونى وأنا أحصى ثروتى ، وأعد حيواناتى وأتذوق ألبانها ، هناك على الجدار الغربى مصورة وأنا أصفف شعرى ضفائر جميلة وأرسم الكحل حول عيونى ، هناك نقشت أنى الأميرة الآمرة ، الحكيمة الحاكمة ، المتربعة بثقة فى قلب زوجى حاكم الإقليم ، ليت اللصوص تركوا لى خاتم إمارتى ، فتتعرف على هويتى وتنزلنى منازل الإمارة ، أيتها القوة الكامنة امنحينى قدراً ضئيلاً أبصّر به الشيخ ، امنحينى جلاء صوتك ؛ لأحادثه ، لتعود إلىّ مكانتى ، ويعود إلىّ ثرائى الذى حشدته لنفسى بدار الأبدية .

لم يصل للشيخ أىّ من حديثى ، كل ما جنيته مزيد من اليأس ، عدت لانتباهى مع توقف الشيخ عند بناية تختلف عن منازلنا ولكنها على مشارف قريتنا ، مازالت السلة بيده ، ومازلت أنا بالسلة ، ركن الحجرة المعتمة قليلاً كان مستقرى ، هذا الشىء الجلل الذى أنتظره . لا ربما يأتى غداً أو بعد غد ، لم يعد ملل اليوم بجوار ملل سنوات وسنوات مللا .. لم يكن ملل انتظار ثوبى ملل بمقارنته بملل السنوات السابقة ، وأمى وهى تصحبنى مرتعشة إلى البركة التى لا قمر فيها ، أنتظر فى القرب ، وتذهب وحيدة ، تعلو على خوفها وتعلو ، فتتشكل

---

(١) أسواق سوريا .

صلابتها ملامح وجهها جافة وقاسية ، نحمل أحزمة الكتان المبتل من البركة ونعود ، نرفع الكتان الذى زالت عنه قشرته الخارجية وظهر أسفلها الغزل ، نفرش الأخر مكانه ، ونرشه بالماء ، نرقب نظرات الجيران علّ أحدهم اكتشف أمرنا ، نثير الحديث عن كتان الحاكم الراقد هناك بالبركة أحياناً علهم يعلمونا بأن أحداً سرقه ، نقتل الرهبة بداخلنا ، ونسير بخطى ثابتة نحو الجمود .

- بقى حزمتان فقط زيارة أخيرة ونستكمل ثوبك .

قالتها أمى وهى تفرش الكتان الذى حملناه الليلة ، تبتسم فتظهر تجاعيدها حول فمها جلية .

قلت لها : كفى يا أمى فليكن الثوب قصيراً .

- ثوب قصير عمل عظيم ناقص .

يكفينا شر المغامرة .

- تريدين لساقيك أن يظهرا .

- لا .

- كل ما بداخلك يدور ، يمر علىّ وأعلمه .

- لا صدقينى ، أنتى تعلمين أنى أكره العرى .

- ولكنك تريدينه قصيرا ، يتمنى الفتى لو يرى ما يخفيه الثوب الطويل فيفكر فيك أكثر ويتمنى منك أكثر .

- أكره التفكير بهذه الطريقة .

- إنها طريقة كل الأزمنة وإنى لمدركة ما لا يدركه عقلك الصغير .

لم أجب ، ولكنى كنت أمقته ، وأمقت تلك الطريقة ، أين النار وهذه الحجرة تحرق ما فيها وأستريح ، قلت ذلك بلسانى ، ولكن فى الحقيقة

كنت متلهفة جداً لهذا الصباح الذى سوف يأتى ، ويعكس فيه ثوبى الكتانى الأبيض ضوء الشمس .

لم تكن سرقة الكتان بالعمل الصعب إذا ما قورنت بمواجهة الناس به ، خرجت أمي هذا الصباح لجدتي وهى تبتهل للشمس الدافئة ، كومت أمامها من نسيج الكتان ما أثار همس العجائز الجالسات جوارها ، استطاعت أمي التى نالت من تدريب الجمود الكفاية ، أن تقنعهن بأنها إحدى الهبات السخية من زوجة حاكم الإقليم .

ثبتت أمي عصوين في الأرض لفت عليهما بدايات من ألياف الكتان الناعمة ، بنت جدتى عليهما بناءها من النسيج الذى يوماً وراء يوم كان في طريقه للاكتمال .

بدأ تيبس يدى جدتى يزول تدريجياً ، أثبتت لأترابها بعد فترة قصيرة أنها المتقدمة عليهن دائماً فى السابق ، وفى هذا الوقت أيضاً .

اتخذت مجلسى هذا الصباح عند بوابة المنزل المرتفعة قليلاً عن أرضيته ، كنت أرى زوجة أخي وهى ترطب جسدها بالدهان المعطرة فى هذا الوقت من الصباح ؛ تلمساً للنعومة التى دائماً ما يذكرها لها زوجها ، وقعت نظراتي على جدتى فى الدرب وهى تغزل بمهارة ، أرقب بناء الثوب سطرا سطرا كالنص الذى يفشى كل شيء عند قراءته .

لم تقتنع زوجة أخى بالقصة التى اقتنع بها - على مضض - الجيران ، ظل فضولها ينضح مع نظراتها أياما ، ولكنها كانت قانعة تماما بتفوقعي على نفسى ، وصمت أمي ، وهروبنا لحجرة السطح دائما ربما زادت من نظراتها الفضولية حينما أدركت هروبنا .

فاقت جدتى تصوراتنا فانتهت من نسج خيوط الكتان جميعها ، كان لابد من الانتظار أياما طويلة ؛ كى نستكمل لها سرقة آخر حزمتين ، توقف العمل على ذلك المنوال المنصوب هناك ، عللت أمي أسباب هذا

التوقف باعتلال يد الجدة ، ربما لم يهتم الجيران بالتوقف ، ولكن أمي بحثت عن سبب لذلك ، وأعلنته لتهدئ من توتر نفسها قليلا .

أيقظتني أمي في غفلة المساء الكحلاء ، سرت نصف يقظة وراءها ، أقلق بقدمي سطح الأرض الساكن ، وصلنا إلى البركة ، فأعادت على أوامرها بالانتظار ، نزلت مع هبوط الأرض ، تناولت بيدها حزمتين الكتان ، وصعدت ، كان توترنا أقل من ذي قبل " لتعودنا على ممارسة الفعلة بكل تفاصيلها ، ناولتني إحدى الحزمتين ، حملتها ، هممنا بالسير ، خرج من الأرض ذلك الرجل - ضخم الجثة - المكلف بحراسة الكتان ، صرخت من هول المفاجأة ، وربما لم أصرخ تحت تهديده بافتضاح أمرنا ، ومعاقبتنا ، سارت أمي معه إلي ذلك الخص القائم بالقرب ، الذي يقيه برد الساعات الأخيرة من الليل ، أمرتني أمي بالمكوث مكاني ، ومعي الحزمتان .

كم من الوقت مر ، وأمي هناك ؟ ساءلت نفسي والقلق ينهشني ، وبرودة تغزو أجزاء جسدي العاري ، لم أدر ما اللحظة في هذا الوقت لم يكن لها وقتها المعتاد ، القصير ، أبدا !

عادت أمي مهوشة الشعر ، وقدماها زاحفتان ، ووراءها الحارس الذي سحب لنا حزمة كتان ثالثة حملها لأمي دون حديث فعاودنا السير صامتتين باتجاه المنزل .

أسقطت ما حدث من ذاكرتي في هذه الليلة إلا اكتمال الكتان اللازم لإنهاء الثوب ، ولكن علاقتي بأمي لم تعد كسابق عهدها منذ ذلك الوقت ، لم أكن لأتفهم ما قامت به من تضحية ، لم تلتق نظراتنا إلا لتؤكد ذلك الشرخ الهائل القائم بيننا .

كنت بحجرة السطح أرقب جدتي من فتحات الجدار وهي تنسج نهايات قصتنا المخجلة ، رغم ذلك لم يقل فرحي بثوبي قط ، أما العجائز فكن يتبعنها بنظرات لا مبالية حيناً ، وحاسدة حيناً آخر .

يظلم ركن الحجرة وينير ، يسود الظلام ويعم الضوء الخافت الذى تسمح بعبوره النوافذ ، تهدأ الأقدام وتشتد ، وأنا ما زلت بركن الحجرة كمًا مهملاً ، تتساقط ذرات الأتربة برتابة علي كومة عظامى بالسلة ، تتحول تدريجياً إلى طبقة تكسونى .

أسمعهم وهم يتناقشون ويحللون قضاياهم ، والشيخ يرأسهم ويبجلونه ، ظل الحال على هذا المنوال فترة طويلة ، صار لمكانى الجديد صفات القبر ، العزلة والتأمل ، أصرخ حينا ، يعلو صوتى فلا يثير صخبى تساؤلاتهم ، اجتمعوا فى ميعادهم هذا اليوم ، تصدر الشيخ المجلس وتحلّق حوله الفتية يستمعون له ، كانت فرصة لى وهذا الجمع ، بدأ صوتى يعلو ويعلو ، يذكرهم بمكانتى ، ويبصرهم بمن أنا ، أنا درة التاج ، زوجة حاكم الإقليم المدللة ، أنا ساكنة القصر ، المطلة من علٍ ، أنا صاحبة المقبرة فى تاج الجبل ، تستطيعون أن تفتحوها ، أن تكتشفوا أنها فارغة ، أن تقرأوا الأسطر على جدرانها ! إنها لى ، إنه مكانى ، أنا الـ " نبت – حاسوت "[1] وراعية الفقراء ، المهدية لهم أثواب الكتان الناصع ، فقط أسمعونى قليلاً من الاستجابة ، لا أطلب منكم الكثير ، كل ما أرجوه هو حملى ، ودفنى فى مكانى الذى استهلك السنوات الكثيرة ؛ لإعداده .

---

(١) السيدة المبجلة .

لم يعرنى أىّ منهم الانتباه ، كنت أعلم ذلك ، ولكنه الأمل الذى دوماً ما يقود خطواتى ويشكلّها ، وعندما كنت على شفا الاقتناع بنصيبى فى خدمة المعبد وطقوس الإله ، برق الأمل كوميض فى شرايينى ، كشلال يكتسح بقوة كل ما تكلس من اقتناع بالقليل ، تسلط الأمل علي كومة الأفكار الراقدة هناك ، فأظهرها ، وكان على أن أختار منها ؛ لأصل إلى ما أتمناه ، وتتسابق إليه أترابى .

عرفت دروب المعبد الداخلية خطواتى جيداً ، صرت أفرغ من طقوس الخدمة اليومية ، وبعدها تتلقفنى دنيا الموسيقى بالمعبد ، فأنغمس فيها ، تُرعش يدىّ أوتار الهارب بشقة ، فتخرج أنغامه شجية ، أستمع بأدب إلى المدربة فأصير لها التلميذة النجيبة ، ولنصائح الكاهن المشرف فأنال إعجابه ، ويستمع الكهنة المرتلين لألحانى فأستأسر قلوبهم .

تتسرب أنغامى الشجية إلى خارج جدران حجرة الموسيقى ، وحينما أفرغ من درسى الذى انتظم ، أخرج فأجده بانتظارى ، ذلك الشاب الذى تتبعت خطواته برهبة عند قدومى للمعبد أول مرة ، كان هادئا يتسرب كبرياؤه من جميع حركاته ، وتنبعث منه رائحة النظافة الدافئة ، يستطيع التحكم في تصرفاته فتخرج متزنة وحينما تلتقى نظراتنا يفقد تلك القدرة تماماً ، فيتعلثم .

اكتفيت منه بهذا التعلثم الواضح فى البداية ، كنت مدركة أننى طالما شجعته سيتغير ، ولكنى لم أبد له التشجيع أبداً ، ولكن اهتمامه اتخذ مجالاً آخر ، فكان يحثنى على التقدم فى دروس الهارب ، دائماً ما قال لى إن الهارب - أخيراً - وجد الأصابع الذكية ، أبتسم ، أهرب إلى حجرتى المخصصة ، يطير قلبى فرحاً ، وتنضح من عينى النظرات المتخابئة ، وأشكر للجدران إخفاءها .

أخرج من المعبد عند انتهاء طقوسه الليلية بعد أن يدخل الإله ناووسه ، يسود الهدوء المكان ، يقسم علينا أحد الكهنة الطعام المتبقى ، أضعه فى السلة التى خصصتها لذلك وأعود ، يسكن دروب القرية الهدوء بعدما انحسر العائدون عنها لمنازلهم .. أجده جوارى ، يتعلّل بالظلام لمصاحبتى فى رحلة العودة ، خوفاً من الذئاب واللصوص ، خاصة وأن السلة التى أحملها تجذب برائحتها أنوفهم ، ينتابنى الإحساس المرهف ذاته ، لكن وجهى يظل على جموده ، نتبادل الحديث الذى يقرب الهمس حينا ، يبهرنى باطلاعه وسعة علمه ، ومجالسته للفائف البردى ساعات طوال دون ملل ، تقل المسافة الممتدة بين المعبد ومنزلنا بسحر حديثه ، نسير فى هالة مضيئة مصدرها ذلك الإحساس الذى يدب فى أوصالى كأنه الحياة ، يتركنى عند بابنا المطل على الزروع ، تظل رائحته الخاصة جدا بأنفى وقتا .

كانت للأيام نفس أحداثها اليومية ، أدخل من عتبة المنزل إلى عالم مغاير كليا لما أراه فى المعبد ، وأمى التى اتخذت ملامح جدتى الراحلة جالسة و قد احاطت بيديها ساقيها ، ودفنت رأسها بينهما ، أمامها وعاء عشائها فارغا ، تنتظر منى أن أعب من سلتى وأملأه ، وأخى وزوجته وأولاده فى حجرة منارة بسراج مهتز متحلقون حول عشائهم .

أملأ وعاء أمى طعاماً ، وألقى لأولاد أخى بالباقى ، أصعد لحجرتى بالسطح ، لم تترك الأفكار أى شهية لتناول الطعام ، صرت أحيا بقليل من الطعام ، وكثير من الآمال هذه الأيام .

ما زالت الأيام على قديمها إلا من تعاظم ذلك الرحساس تجاه " موسا " ، أما هو فكان ينسج ذلك الإحساس خيوطاً من المسئولية والمودة الظاهرة ، كان طبيعياً جداً أن يترجم أحاسيسه على الورق طالما يتقن لغة الكتابة ، وأنا أجيد القراءة ، لذا حينما أعطانى تلك الورقة المطوية بعناية

والمختومة بختمه ، لم تبد على ملامحي الدهشة بل تركت لفرحتي عنانها هذا النهار ، وتربعت فى ظل الحائط أقرأ ما سطره لى .

أستطيع أن أذكر ما كتب ، لقد كان من الشاعرية بحيث لا أنساه أبدا ، وكان من دقة الكتابة وجمالها ما جعلها فى مخيلتى ، كنت أرددها على مسامعى حينما أكون منفردة ، تعزف يداى الهارب للمستمعين ، وتردد شفتاى أنشودته على سمعى فقط .

وجدت نفسى أرددها على نغمات الهارب يوما :

" أيتها الفتاة التى تسير فى أثرك الطيور المغردة

أيتها الفتاة التى تنتصب بهامتها كشجرة الورد

ألق إلى من لحظك نظرة تحيينى

ألق إلى موعدا يدنينى

إنها القبلة منك

هى التى يحيا لها قلبى

فإن أنا ظفرت بها

فليكتب الإله أن تكونى لى إلى الأبد

أيتها الحبيبة .. إليك أفضى بذات نفسى

إن الأمنية التى يخفق لها قلبى

هى أن أصبح قواما على شئونك

وربا لدارك

وأن تستند ذراعك لذراعى "

لم تكن كلماته كالحطب إذا ما احترق ارْمَدٌ ، كانت كلماته بداخلى جمراً متصلاً يطلب المزيد ، تخرج حبات العرق على جبينى وعنقى ، تبدو رغبتى لسماع كلماته تلهفاً صامتاً ، كيف وصمتى له حديث ؟! أدرك ذلك فحث صمتى على الحديث أكثر ، زادت فترات صمتنا أثناء العودة ، واتته الجرأة مرة ، فلمس يدى ؛ طلباً لحمل السلة ، راودتنى جرأته ، فلم أسحب يدى ، صارت يدى أسفل ، ويده الناعمة تحتضنها ، وتعويذة هدوئه تسرى بأوصالي ، عند جدار المنزل أسندت ظهرى للحائط ، فصرت فى مواجهته تماماً وضوء البدر ينعكس على وجهى ويظهر بوضوح ارتعاشات شفتى ، أسدلت جفونى برقة نسيم الربيع ، رغم ذلك ظللت أراه وهامته التى تعلو هامتى ، ووجنتاه لامعتان ، وعيناه اللتان تحتفظان ببراءة الطفولة .

هل مس شفتى ؟ هل لم يمسهما ؟ حدثت نفسي ، ولكنى لم أدرِ حقيقة ما حدث ، فقد وصلت ارتجافات أصابعي لكل نفسى ، فغبت عن وعيى وأفكارى المرهقة ، فتحت عينى ، كانت رأسى مستندة علي صدره ، احتوانى كطفلة مدللة ، كان لعناقه سحر خاص لم تدركه من قبل موسوعة أحاسيسى .

ظهرت على أمى سمات غير مطمئنة تنبئ بانفجار نفسها ، عند عودتى كنت أراها متوقعة بنفس مكانها تتحدث لأشباح ذكرياتها بهدوء ، اقتربت منها ، وتحدثت لها برقة مفتعلة :

– ما بك يا أمى ؟

لم تعرنى انتباهاً ، ولكنها اعارته كلية لشخص ما تراه أمامها قائلة :

– تركت لى المسئولية كاملة والآن تحاسبنى ، و" رع " إنك لمخطئ ، إن " رع " لمخطئ أيضاً ، فهو لم يعد لى من

أذرع المساعدة ذراعا ، بل لم يحملني بطاقة من طاقات التحمل ، فأصبر على ما ابتلاني .

ابتسمت ، مددت يدى أربت على كتفيها ، علها تهدأ ، وقلت :

- مع من تتحدثين يا أمي ؟

عادت لشرودها برهة ، ثم لحديثها ونفسها قائلة :

- إن كل ما أعطيته لى أخذت ثمنه ، لم تكن أفعالى لوجه الإله ، لم يكن عبث نسوة ، فقط من أجل الأجر !

توجست الخوف من حديثها ، كلتُ لها من الحنان ربما تعود لرشدها ، هدأت قليلاً ، أطعمتها فشملها الهَدوء ، نامت مكانها ، لكن الهدوء لم يجد طريقه لقلبي هذه الأمسية . أثرت حالة أمي مع أخى وزوجته ، فلاذا بالصمت الذى أكد لى أن حالتها تلك بدأت منذ فترة ، وحالة التجاهل المتبادلة بينى وبينهما لم تسمح بإخبارى .

كان بالمعبد حركة شاملة هذا الصباح ، أعلن الكاهن المشرف عن بدء أعياد الربيع وإقامة الاحتفالات التى سوف يحضرها الحاكم ، عندما سمعت كلمة الحاكم ، راودنى أملى القديم بأن أصبح من الأميرات ، فقط على حاكم الإقليم أن يرانى .

المزيد من التشجيع حظيت به من "موسا" ، حثنى على زيادة تدريبات ودروس الهارب ، صار يقوم بأعمالى فى غفلة من عيون الباقين ، لأتفرغ كلية لهذا التدريب ، حقيقة لم يكن يدرك نواياى بصدق ، ولكنه اندفع فى تشجيعه ؛ لينال رضاى ، لم أكن بالسذاجة التى تنكر ذلك ولكنى لم أضع الفرصة من يدى ، صار يصحوا مبكرا جدا ، ويتسلل لحجرة الأدوات ، يعمل بجدية ، إلى أن تشتكى الأوانى لمعانها ، ويعيد العمل ذاته فى المساء ، بعد أن يقوم برحلة توصيلى التى ربما يقوم

بكل ذلك من أجلها ، بعدها يعود للمعبد ، دون كلل ، أرقبه بدهشة وأتساءل .

- هل حبه يستطيع أن يهون عليه القيام بالأعمال المهينة ؟

- هل لو رآه الناس يقوم بما يقوم فهل سيستمر ؟

كانت تلك الأفكار وغيرها تمر بتفكيرى ، ولكن الثابت بها هو البحث عن جسر العبور من تلك المرحلة المهينة إلى مرحلة أخرى أسكن فيها القصر المشيد هناك على صفة النهر ، والمسكون دائما بعبق الربيع .

صار هذيان أمى صراخا يسمعه الجيران إذا اندلع ، أفضت بأسرارها بعدما انقطع لسانها من وتد الصمت ، صارت أشباحها مرئية تماما ، وأخى الذى علم كل شىء لم يغفر لها سيئاتها .

وجدته اليوم وقد كوم الكثير من ليف النخل ، جلس وقد أولانى ظهره ، يجدل الليف حبال وينفث فيها غضبه ، جدل الحبال حبلا واحدا غليظا ، ربطه بوتد دقه بأرضية حجرته ، كنت أرقبه بخوف الطفولة الأول منتظرة أن يفصح عما بداخله ، ولكنه ظل على غلاظته ، جر أمى من قدميها ، وربطها بطرف الحبل الحر ، خرج من الحجرة وصراخ أمى يعلو وراءه ، لملم أولاده وزوجته وصعد ليسكن حجرة السطح .

قضيت هذه الليلة فى ركن حجرة أخى ، أمى تنام على الأرضية بباقى حديثها ، جاءتنى فكرة أن أتحدث معها ، فأسمع ما سوف يستمع إليه منها الناس مستقبلا .

سألتها عن أبى .. حدثتها برقة علها تسكن إلى ، لكنها كانت منشغلة عنى بآخرين ، خرج صوتها عاليا مبحوحا :

- ابتعد عنى ، لقد كرهت أفعالك ، كنت مجبرة عليها

لكى أنال منك حـزم الكتـان ، تمنيت أن أزوج البنت ، فأفرغ للسفر بحثا عمن تركنى وحيدة وأطفالا جياعا بحثا عن ملذاته ، وذلك الحجر المدبب الذى عاهدت " رع " أن أغمده في قلبه ، وأنزعه فأطعمه للكلاب ، فلا ينال شرف البعث أبدا فغرت فمى مندهشة ، لم أحثها على المواصلة ، ولكنها استمرت فى حديثها : - ابتعد .

قلت لها اصمتى فتمادت .

- ابتعد .

احتضنتها وظلت يداى تربت على ظهرها فترة إلى أن تسلل إليها النوم ، استقبلنى صباح محبط ، قررت أن أحدث الكاهن بشأن رغبتى فى الإقامة الكاملة بالمعبد ، فأصير من المنقطعات لخدمة الإله ، ولى حجرة أقيم بها إقامة كاملة بالمعبد ، ولكن بمجرد أن خطت قدماى عتبة الباب الجانبى حتى وجدت العاملين مجتمعين لسماع تعليمات الكاهن .

صار لضربات قلبى صوتا كدقات طبول ، تمنيت لو أرجأ الكاهن الاختيار ليوم آخر يبدو فيه وجهى أكثر ارتياحا ، وأعصابى أكثر هدوءا .

- ٧ -

انحسر فيضان آمالى تدريجيا ، صرت أتمني أن تنبش الشمس عنى ، تصل أشعتها إلى كومة عظامى فأبتهل لها وأتلو التعاويذ علها تتسلق أشعة الشمس وتصل للإله " رع " فيخلصنى من مقبرة إهمالى المتجددة ، لم أكن لأصدق فى السابق أن أجتمع أنا والناس ، ولا يعيرونى انتباهم ، أن أنعق كالبوم ، أن أظل كومة من عظام يابسة ، ومستقر لذرات الأتربة الحائرة .

سمعتهم وقد بدأوا الحديث مع الشيخ هذا اليوم فقال أحدهم :

- كيف لنا والوصول إلى ماهية المواد أيها الشيخ ؟

تمهل الشيخ قليلا ، ثم أجاب :

أول واجب أن تعمل وتجرى التجارب ؛ لأن من لا يعمل ولا يجرى التجارب لا يصل إلى أدنى مراتب الإتقان ، فعليك يا بنى بالتجربة ؛ لتصل إلى المعرفة[١] .

عاد صوت الطالب من جديد :

- وفى حقل تجاربنا أيها الشيخ من أين نبدأ ؟

أجاب الشيخ بعد أن لازمه صمته وقتا :

---

(١) من أقوال العالم النابغة الصيدلى / جابر بن حيان .

- البداية دائما ما تكون صعبة ، عليك يا بنى بالبداية مما انتهى إليه سلفك .

قاطع الصوت صوت آخر متلهف للمعرفة :

- كيف أيها الشيخ ؟

ابتسم الشيخ ، لتسرع الشاب ، وقال :

- مثلا يا صغيرى الأعشاب عرفها أسلافنا ، فكان الكمون للمعدة ، وحلف البر للكلى وجلائها ، والجرجير لعلاج الشعر ، هذه المعارف البسيطة يا بنى يدركها عامة الناس .

عاود الصوت المتلهف الحديث :

- وكيف نستط .... ؟

لم يمهله الشيخ بل أشار له بالإنصات قائلا :

- واجبك يا بنى هو استخلاص المادة الفعالة من هذه الأشياء وتركيزها ، وعند تناول المريض لها تؤتى مفعولها فى زمن قصير ، هذه وظيفة الصيدلة .

وصل ضجرى حتى النخاع ، بدأ صوت أملى يهذى كعادته ، علا صوتى حتى صار عويلا ، لم يلتفت أى من الحاضرين إليه ، ولكن اليأس لم يتسرب إلى فعاودت الصراخ : أدركونى أنا بمعزل عن مكانى ، فقط انقلونى من هذا المكان لقبرى ، لتمثال إماراتى وشاراتى ، لخدمى ووصيفاتى ، للحلى التى صنعتها ، لقد كان خاتم هويتى معى إلى أن

سرقه اللصوص ، لقد حفر مكانا بإصبعي بعد أن ظل به سنوات طويلة ، كان من الممكن أن تروه واضحا لولا الدود اللعين ، الذى لم يفرق بينى وبين الفقيرات ، ليته حفر مكانا بعظام إصبعي .

لم يلتفت أحد إلى البتة ، فعاد صوتى إلى خفوته ، ولكن أفكارى ذهبت للبعيد ، وكان لذهابها كل الترفيه لنفسى .

كان لجدتى وهي تنسج الكتان فى الدرب منظر ثابت كتمثال ، والعجائز الجالسات مستندات للحائط يرقبنها ، وأنا فى حجرة السطح أرقب جدتى من فتحات الجدار .

دعتنى صديقاتى مرات للخروج معهن ، نفدتْ جعبة حججى قبل نفاد صبرهن علىَّ ، خرجت معهن إلى المعلم بمدرسة المعبد ؛ ليباركنا ، وجدنا الصبية هناك وقد جلسوا القرفصاء وألواحهم الخشبية على سيقانهم ، يلبسون الوقار تذكرت يوم أن داست قدماى طريق تلك المدرسة ، وحينما اتقنت الحروف جميعها ، أمسكنى " رخميرع " عن الذهاب ، خوفاً مني والعلم الذى يفرش طريق صاحبه بالأمانى ، ويمهده بالمهابة ، خاصة وأن زوجته فيما بعد لم تحبذ لى هذا الطريق أبداً ؛ متعللة بالمنزل وواجباته ، ملمحة إلى الأنوثة التى طرحت أولى ثمراتها على جسدى .

اتخذت خطواتنا مسلكا مختلفا هذه المرة ، دفعنا فضولنا لاختراق حى النبلاء لم نجد صعوبة في الوصول إليه ، فقط تتبعت أنوفنا عبق الربيع ، وددنا لو رأينا الزهور الملونة الطافية علي سطح البرك بحدائقهم ، والتى حكى لنا عنها عامل الخدمة لديهم فى السابق ، أنستنا متعة المغامرة خطرها ، فاجتزنا المسافة الباقية بجسارة صيادى أفراس النهر ذاتها ، وقفنا بمحاذاة السور النباتى لأحد تلك المنازل ، كان للهواء بهذا

المكان شذا الربيع ، لم نستطيع تحديد نوع الرائحة ، هل هى لزهر الليمون ، أو عطر آخر قاصر على النبلاء ؟ تذكرنا جميعا ذلك الأريج الذى نتنسمه تحديدا فى بداية الربيع ، والذى يمر علي دربنا ولا يسكنه ، فقط يذكرنا بوجوده .

تخلل تلك المغامرة شرودى ، عاد تفكيرى لمجلس الجدة وهى تغزل صامتة ، وأمي التى كثرت فترات صمتها مؤخرا ، ترى متى بدأت جدتى رحلة صمتها ؟ ولماذا انعزلت عنا بسياج صمتها ؟!

ضاقت صديقاتي بصمتي وتكرارية حثي على الحديث ، عدنا للدرب كانت تلك الرحلة آخر محاولاتهن معى ، رأيتهن فيما بعد قد تجمعن للعب بالقرب ، أو وهن يتسللن بعيدا عن الأعين .

انتهت جدتى هذه الظهيرة من نسج الكتان الذى سوف تخيطه لى أمى ثوبا ، كانت فرحتى به غامرة ، تخيلت أننى به أعلو على زوجة أخى المستبدة ، وأحول أنظار جيراننا عن بهائها ونعومتها ، تخيلت أننى سأصد به عيون الفلاحين عن الجزء الذى سيتحور فى القريب ، وبه سأتميز عن صديقاتى العرايا ، فيعدن للتقرب إلى ، صارت فرحتى نسيجا آخر يغلف المستقبل بغلالة رقيقة ملونة ، صرت أنتظر ذلك برغبة لم تدانها رغبة عندى من قبل .

أحضرت أمى الكتان لداخل المنزل مبتسمة ، تناسيت ما بيننا فى غمرة فرحتى ، لفت به جسدى من أسفل الذراعين ، فغطي ركبتى ، كانت فرحتها به أكثر من فرحتى وتمتمت بكلمات تدل على وعيها بالخياطة فقالت :

- نخيط من هنا وهناك .

وأشارت لجوانب النسيج ، وحينما استفسرت عن الحمالات التى ستثبت الثوب على كتفى أجابت :

- سنصنعها من باقى الكتان المضفور .

فرحت وقلت لها

- سيكون مميزا .

فقالت لى وهى تشير إلى الثوب :

- إنه تمييز لك ارتدائك ثوب دونما حليات .. يكفى أنه الثوب .

تنهدت رغم ذلك لم يسيطر عليها الحزن ، كانت فرحتها مكتسحة لأى حزن مترسب هناك .

دخل أخى وأنا وأمى نتحدث ، فأكفهر وجهه ، وتسائل عن مصدر كتان الثوب ، فقالت له أمى :

- ألم تقل لك زوجتك أنها إحدى « الهبات السخية من زوجة حاكم الإقليم ؟

فنظر إلى الثوب ، وعاد وركز نظراته فى عينى أمى ؛ طلبا للحقيقة ، وقال :

- أين أنت ورؤية زوجة حاكم الإقليم .

لم ترتبك ، ولم يطرف لها جفن ، ربما استعدت فى السابق لهذا الحديث :

- إننى لم أقابلها ، لقد ذهبت للمعبد ، فأعطوا لى من الكتان الحزم الكثيرة .

قال لها والضيق يعتريه :

- ولماذا لم يعطوا الباقين ؟ هل وضعت ريشة " ماعت "[1] على رأسك ، أم ظهرت علامات سجودك لـ " رع " فى جبينك ؟!

تماسكت أمى ، وقالت :

- لابد للابن أن يصدق أمه .

لم يمهلها فقال :

- حينما تقول الأم الصدق !

قالت له :

- اصمت .

فقال لها :

- متى يحين أجلكما - وأشار إلى وإليها - فأفرغ لمسئولية أولادى ؟ وأعدك يا أمى أن أعلمهما الصدق .

تركنا وانصرف وانصرفت زوجته وراءه بملامحها الجامدة .

استيقظت أمى صباحاً على تأوهات الجدة التى ترقد أسفل الدرج ، وصلت إليها وقد لفظت أنفاسها الأخيرة ، وربما بعد معاناة استغرقت الليلة بطولها ، وربما لم تستغرق تأوهاتها إلا ما وصلنا منها ، حقيقة فكرة نسجها للثوب هى التى بعثتها من موتها عندى ، فلم يكن لها وجود بحياتى منذ أن تسيّجت بصمتها .

---

(١) ربة العدل ويرمز لها بالريشة .

استيقظ " رخميرع " وزوجته على نواح أمي المتعالي ، هرول من مرقده فزعاً ، قلَّ فزعه بعدما استطلع الأمر كأنه ينتظره ، جلس جوارها يتلو من تعاويذ ذاكرته ، مرر يده علي جبينها الصغير ، سمعت بعضاً منها

- " ليت " رع " يشرق على دار أبديتك ،

وينير طريقك باتجاه الفردوس ،

ويكون حليفك أثناء مرورك

عند جحر الثعبان المخيف "

ليت " نوت "[1] تنير سماءك .

خرج بعد أن فتح باب منزلنا المطل على الدرب للنسوة اللاتى تجمعن على صوت أمي ، كانت جدتى مازالت على وضعها الذى فارقت به حياتنا ، تجثو على ركبتيها ، وجبهتها تلامس الأرض ، نزلت درجات السلم ، اقتربت منها بحذر متسائلة هل فقدت جدتى شيئاً كثيراً ؟ إن جسدها كما هو ناحل صغير ، هل للموت أثر أكبر من ذلك سيأتى ؟ اقتربت أكثر ولمستها ، يدها باردة تماماً بعد أن فارقتها حرارتها .

أمي التى أخذ نحيبها يعلو شاركتها فيه النسوة فصار نشيداً حزيناً رتيباً وضعت هي والنسوة يدها على رأسها ، والأخرى تخبط بها على اليد الثابتة ، فكان لحركاتهن وقع منتظمٌ كأنهن تدربن عليه فترة ، صعدت لحجرتى بالسطح أرقب تدفق النسوة بنظام على منزلنا .

---

(١) ربة السماء .

حينما ارتفعت الشمس في السماء كان منزلنا بأسفل يضج بالنسوة ، عدت فهبطت الدرج بحذر ؛ كى لا يلحظنى أحد ، فيهمس متذكراً الكتان ، أو ملمحاً لأنوثتى ، زوجة أخى ما زالت بحجرتها ، وجدتى قد اتخذت وضعاً أفقيا ، مغطاة بحصيرة أدخرتها أمى ؛ لفرشها في الأعياد ، تسللت بهدوء أسفل الدرج وكشفت عن وجهها ، فبدا لى فاقع الصفرة ، ولكن أمى نهرتنى فأعدته ، خرجت زوجة أخى من حجرتها ، كانت فى قمة بهائها كأيام الأعياد ، لاحظت لمعان بشرتها بالدهان المعطرة ، انتهزت هذه الفرصة والجمع ؛ لتؤكد لهن بهاءها ، اجتمعت صديقاتى خارج المنزل ، كنت ألمحهن يلقين النظرات الخاطفة ، ويجرين بعد أن تنهرن إحدى النسوة ولكنهن وجدنها فرصة للتسلل حينما حضر أخى وأحد الكهنة ، طلب الكاهن من أخى لإلقاء تعويذته مكاناً هادئاً ، اختلى أخى بزوجته يشاورها فى حجرتهما الخاصة مكاناً يتلو فيه الكاهن تعويذته على المتوفاة ، لكنه حينما عاد طلب من أمى الخروج والنساء إلى الدرب لكى تفرغ سقيفة المنزل للكاهن والجدة ، فأدركت أمى أن زوجته رفضت لحجرتها هذه المهمة ، أطالت أمى النظر " لرخميرع " وهى فاغرة فاها محدقة ، لكنه كان على جموده وبلادة حسه ، هرب بعدها للخارج ؛ متعللا بإعداد المدفن .

صعدت السلّم ولكنى بقيت بمكان يسمح لى سماع رقى الكاهن ، خرجت النسوة للدرب وقد تحولن جميعهن لندابات نشيطات ، عادت زوجة أخى إلى حجرتها المعطرة من أثر الدهان الخاص بجسدها وشعرها ، فى حين ظلت أمى بجوار جدتى ، فأمرها الكاهن بالانصراف .

حاولت سماع رقى الكاهن التى تنير طريق الجدة هناك ، ولكنى لم أسمع شيئا ، بخل الكاهن بها على جدتى حينما ألقى نظرته على منزلنا وتأكد من ضآلة أجره ، وربما تلاها سرا .

عاد أخى ومعه رجلان من خدم المعبد - ولم يبق - اصطحب الكاهن لخارج المنزل ، لف الرجلان الجدة جيدا بالحصيرة التى غطتها بها أمى ، حمل الرجلان الجدة إلى المكان الخاص فى المعبد بالتحنيط .

فعادت النسوة للتجمع بسقيفة الدار ، رغم اشتداد الحرارة بأعلى فترة الظهيرة لم أفكر فى النزول البتة ، احتميت من أشعة الشمس بتلاوة التعاويذ ، وعندما صار لصومعة القمح القائمة بركن السطح ظل ، شذبت هيكلى وململته ليتكوم في حدود الظل لا يتعداه ، تناولت بيدى حفنة من حبوب القمح من قلب الصومعة فلكتها حتى صارت مضغة تساعدنى علي جفاف حلقى ، رغم ذلك ظل النسيج بمخيلتى ، وتمنيت لو أعرف ذلك المكان الذى خبأته أمى ، فأحضره وألتف به ، وأنعم بملمسه الراقى !

يجيئنى صوت النسوة بأسفل غناءا حزينا ، يثير بداخلى التساول : هل فقدنها حقا أم أن موتها أثار بداخلهن أحزانهن الدفينة ؟!

انفض الجمع قرب الغروب ، تناست النسوة الحزن كله وذهبت كل واحدة إلى منزلها ؛ لإعداد طعام العشاء لأزواجهن وأولادهن القادمين من عناء العمل طيلة النهار فى الزروع أو المقابر الخاصة بالحاكم .

تحلق " رخميرع " وزوجته وأولاده حول عشائهم ، بينما أمى صعدت ؛ لتستطلع أمر اختفائى طيلة الوقت ، ألقت نظرة اخترقت حجب الظلام المتنامى ، وأخترقتنى ، لم تنبس بكلمة ، استدارت ، فتناولت رغيفين من سلة معلقة بجوار الحائط ، فبللتهما بماء الجرة ، ناولتنى أحدهما ، وجلست تقضم الآخر .

انتظرت منها أن تتحدث ، لكنها لم تبدأ ، فبادرتها هل دفن "رخميرع " الجدة ؟ هزت رأسها بالنفى ، فعدت للحديث :

- إذن أين اصطحب الرجال الجدة .

تحدثت ، فخرج صوتها مغايراً من أثر النواح :

- ذهبوا بها إلى المعبد ؛ لاستخراج أحشائها قبل التعفن ، وسيضعون بدلا منها ملح النظرون .

فعدت أقول :

- لماذا ؟

فقالت :

- إنه حال الفقراء ، أين لنا والمواد المطهرة والبهار[1] باهظة التكاليف ؟ أين نحن ولفائف الكتان الطويلة ، أين لنا والغراء[2] ؟ إنه للأغنياء ، بينما النظرون لنا دون غيرنا .

قلت لها بسذاجة الأطفال :

- ألن نرى جدتي ثانية ؟!

أجابت :

- سنراها عندما يردها لنا الكاهن جافة تماماً من المياه ، وملفوفة بإحكام بذات الحصيرة ؛ بعدها تشيعها نظراتنا لمثواها الفقير .

---

(١) نوع من الزهور يستخدم مسحوقه فى التحنيط .

(٢) الصمغ اللازم للصق شرائط الكتان .

سألتها بخوف :

- ولماذا الحصير يا أمى ، إنه شائك خشن ؟

فضحكت بمرارة وقالت :

- هل تعطينها نسيج الثوب تلتف به ، وتذكر لك ذلك فى أبديتها ؟!

اتسعت عيناى بدهشة ، ولم أجب ، لم تنتظر منى الإجابة فاتكأت على جنبها واستغرقت فى سُبات متعب .

ظل كلامها يحوم بأفقي ، ويضايقنى ، وثوبى الذي يستر منى ما أتمنى ستره والذى لم يكتمل ؟

- ٨ -

ما زلت أرقّد بالسلة وقد أدركت ذرات التراب عجزي ، فزاد هجومها ، أرقب المكان حولي من فتحات خوص السلة المتاحة بضيق ، ولكن أفكاري الجائلة كما عينيَّ ترقب المعبد هناك حينما تشبثت قدماي بالأرض كأنها نبتت منها ، خلف أسطوانة العمود الضخم أقف بهدوء الموت ، ويدي على قلبي تسكت ضرباته ، يجتاح الدم قنوات جسدي إلى أعلى ، فيرهقني بضغط صعوده ، تسقط قطرات عرقي من مسام رأسي كأنها الامتداد الطبيعي للدماء ، وعيناي مثبتتان على الموقف برمته وقد تجمع العاملون بساحة المعبد المكشوفة ، والشمس الضاحكة استهزاء في وجه السماء ، ألمح الجمع وقد نضح من خلجاتهم القلق ، حركاتهم أشبه بالعرائس الخشبية ، تحركهم قوة كبرى بعصبية ، ربما مناصفة مع الترقب ، ولكن بين الجمع فتيات وفتيان حركاتهم طبيعية ؛ لمخزون الثقة لديهم ، ظهر ذلك بوضوح في الأوقات العصبية فينضح الجسد وتصرفاته بما فيه .. حقيقة تفسير تصرفات الجسد المتزنة في المواقف العصيبة بالثقة مغالطة كبرى ؛ لأنها ربما تكون اللامبالاة المتولدة من قلة الطموح ، أما أنا فمازلت منزوية بمكاني يتساقط العرق من عليائه ، ويكتسح هضاب جسدي ، وينحدر بمنحدراته ليستقر عند المئزر بالخصر ، قليلاً وابتل المئزر تماماً ، فالتصق بجسدي معلناً عن تلك الحالة التي أخفيها .

أحكمتُ إخفاء نفسي جيداً خلف العمود المشكل على هيئة زهرة اللوتس ، اختفيت عن أنظار الجمع ، وربما ما يعتمل بداخلهم أخفاني

عنهم ، كان هذا اليوم كيوم الحساب تماماً لا يرى الشخص فيه سوى نفسه ، يفرد صفحة أعماله يراجع المسطور فيها بكل دقة واستحضار ذهن ، رغم كونه يدرك سلفاً طبيعة أعماله ، ولكنها الرغبة الجامحة فى الاستحواذ بما يجب الاستحواذ عليه .

دخل الكاهن المشرف البهو المتسع ؛ ليشمل ما يقدم فيه من قرابين وأضحيات لتماثيل الحكام السابقين الذين رغبوا فى استمرارية مشاركة الإله قربه وقرابينه وخدمة الكهنوت ، فشيدوا تلك التماثيل المنسية منا إلا من قرابين الصباح والمساء .

دعا الكاهن المشرف مجموعاتنا للاصطفاف والنظام ؛ لمقابلة الكاهن الأكبر ، الذى سيصدر بدوره تعليمات قد تكون سلما يرتقى عليه أحدنا ، ويهبط عليه الباقون !

كان لابد لى من الخروج من مكمنى وراء العمود ، فسرت ببطء وثقل هواء بؤونه ، اندمجت داخل الجمع ، ثم تعالى صوت الكاهن المشرف ثانية :

- الفتيات هنا ، والفتيان هناك .

اندسست وسط الفتيات ويداي مفرودتان أمامى ، تحجب مئزرى المبتل فى انتظار قدوم الكاهن الأكبر من مكانه فى الداخل قرب قدس الأقداس ، اصطفت الفتيات فى أربعة صفوف يفصل بينها قرابة نصف (الذراع) ، على مقربة اصطف الفتيان وقد تعالى منهم الهرج الذى خفت تدريجيا بإشارة من يد الكاهن .

أما " موسا " فقد تقدم الصف الأول بثبات ، وبشائر الربيع تداعب وجهه ومئزره القصير ، وهدوؤه ينساب رقراقا مع التفاتاته المتكررة تجاهي .

طال انتظارنا للكاهن الأكبر ، دبت الفوضى في الصفوف من جديد وتعالت همسات متسائلة عن سبب الاجتماع ، ولكن الفتيات أجمعن اعتمادا منهن على حاستهن السادسة على أن الاجتماع خاص باختيار الكاهن الأكبر لمن سيمثل منهم أمام الحاكم فيحيي ليلته بالأغنيات ، والقيثارة ، والهارب ، كما ينبغي أن يكون عيد الربيع .

فُتح الباب المفضي إلى الداخل على مصراعيه ، فشمل المكان صمت الترقّب ، دخل الكاهن الأكبر وقد جلس على كرسي من خشب الآبنوس المذهّب بقرص الشمس " رع " في كامل قوته ، تنبعث أشعته أذرعًا حانية للأرض ، يعكس الذهب أشعة الشمس الحقيقية شعاعاً مبهراً واضحًا للعيان .

أما وقد أسهبت في النظر إلى الكرسي المحمول على محفة يحملها أربعة من خدم المعبد المخصصين لمثل هذه الأعمال الدنيئة ؛ لأنشغل عما يجول بخاطري كلية ووجه الكاهن الأكبر الذي تغلبت حمرة النعيم على سمرته التي بقي منها الأثر القليل . ارتدى جلد النمر فالتف بتوحش حول جسده ، ظهرت إحدى كتفيه عاريةً والأخرى استند الجلد عليها تلمساً لاستقراره .

أما رأسه فكانت حليقة تماماً ، وهي التي كانت تعكس أشعة الشمس .

أنزل الخدم المحف ، حملوا الكرسي إلى مظلة بالقرب ، وفي مواجهتها تماماً ، ألقى علينا نظرة فاحصة دون أن ينبس بكلمة ، فزاد قلقُ البعض ، ثم بدأ في حديث هادئ متنقلا بنظراته بيننا بين الحين والآخر .

" أما وقد دار الإله العظيم " رع " فى السماء فعادت لنا الأيام تحمل شذا الربيع وبهاءه ، فتنعم بخيرات الإله ونستمتع بهوائه العليل ، المسير إلينا بعد أن نعمنا بدفء شتائه وصدق ديمومته ، آن لنا أن نحتفل به فنخرج من قوقعه الشتاء ، نلمح نعم الإله على أرضه ، وفى زهوره الملونة ، محاصيله الوفيرة ، وصفاء سمائه ، وتدفق نيله ، وأنتم يا من يقع عليكم شرف خدمة الإله وأحياء بقائه ، لقد كلفنى الحاكم باختيار بعضكم ممن ألمس فيهم قوة النفع ، وشرف تمثيل المعبد ، لإحياء حفل الربيع الذى ماهو إلا صورة من صور " رع " المتعددة .

وزع الكاهن الأكبر العمل بعد ذلك على الكهنة المشرفين ، كل حسب تخصصه ، فطلب من الكاهن المشرف على دار الحياة تقديم خطة عمله ، والتى سوف تعرض على حاكم الإقليم ؛ ليبدو العمل مكتمل فى هذا المجال ، فتقدم الكاهن المشرف على دار الحياة فقال : " قررنا هذا العام أن نقدم للحاكم نسخة من كتاب الموتى بمناسبة الانتهاء من نحت مقبرته العالقة بالجبل ، وتزينها ، هذا وقد أشار الحاكم من قبل بأهمية إهدائه نسخة من كتاب الموتى ، قام الكاهن المرتل " موسا " بالإشراف على هذه النسخة والتى كلفته والعاملين معه طيلة الشهور السابقة ، واسمح لى أيها الكاهن الطاهر أن أترك له الحديث في هذا الأمر .

تقدم " موسا " بثبات الواثق وقد همس لأحد الخدم ، فذهب ، ثم قال :

- سيدى لقد استغرق عملنا الشهور السابقة ، وإنى لست بحزين لضياعها ، لقد استخدمنا لصناعته ورق البردى الممتاز ، والمزروع على ضفاف نهرنا بكثرة ، المصنع بأيدى الصناع المهرة التابعين للمعبد ، واستخدمنا فى كتابة الآيات والتعاويذ ماء الذهب الخالص المشرق كـ " رع "

فى أفقـه ، أما بخصـوص المداد الأسـود الذى لن يفـقـد زهوته إلى يوم البعـث ، فلقـد أشـرف الـكهنة المخـتـصـون على تركيبه وإعداده ، اخترت بنفسى فريق العمل ، وقد راعى فريق العمل الإخلاص وتحرى الدقـة . إن حضوركم الدائم لمقر دار الحياة كان حافزاً لهم ، فخرج العمل على أكمل وجه .

أنهى " موسا " حديثه وقد أتى الخادم حاملاً كتاباً مبهراً فى يده ، ما أن وقـعت نظرات الكاهن الأكـبـر عليـه حتى انفـرجت أسـاريره وتـهلل ، فانفرجت أسارير باقى العاملين بالمعبد لذلك ، بعدها أمر الكاهن موجهاً حديثه للكاهن المشرف بإعداد جراب من الجلد الطرىّ ، المعالج بالدهان المعطرة للكتاب وصندوق من خشب الصندل العطر مطعم بالعاج الإفريقى والصدف بحجم الكتـاب ، آمراً " موسـا " بالإشراف على إعداده بنفسه لتقديمه للحاكم ، وأمر أيضا بصرف ثياب جديدة " لموسا " للقاء الحاكم .

حقيقة أخذنى حديث " موسا " وكبير الكهنة من قلقى ، واستغرقت فيـه تماماً ، وتسللت لنفسى ثقـة قليلة من نظرات " مـوسـا " المصوبة تجاهى ، كنت فرحة بمشاعره ، وفرحت أكثر حينما لمست بنفسي تقدير الكاهن الأكبر له ، وتساءلت : هل نهمـه فى تحصيل الدروس ، وقراءة الكتب ، وجديته فى الإشراف على النسخ ، وتصنيع الحلى ستؤهله يومًا للجلوس على نفس مقعد الكاهن الأكبر ؟

عاد " موسا " لمكانه فى الصفوف ، وعاد الكاهن الأكبر للحديث فى موضوع مختلف هذه المرة ، بخصوص النبيذ والجعة المقدمة للحاكم ، فتقدم الكاهن المشرف على مزارع كروم المعبد بمجرد سماع ذلك ، وتحدث مع الكاهن الأكبر حديثاً خافتاً ، فأرسل الكاهن الأكبر من ذهب كالريح ، وعاد سريعاً محملاً بإحدى الجرار الفاخرة ، وقدمها للكاهن الأكبر ،

فشملتها نظراته الفاحصة ، وتأكد من صحة أختامها ، وأمر بنقْش دعاء له الـ " دى - عنخ - جت[1] على جميع الجرار ، وأوصى بجمال وأناقة ممثلات المعبد حاملات الجرار ، وصرف لهن - كمنحة - الدهان المعطرة التى سوف يضعْنها عند مقابلة الحاكم ، وبخصوص الملابس أمر الكاهن المشرف ببدء حياكتها ؛ لتكون جاهزة وقت الاحتفال .

دقّ قلبى بشدة منبئاً عن حديث الكاهن الأكبر عن الحفل الموسيقى ، واختيار عشر فتيات تعزف بعضهن ، وتغنى الأخريات ، عاد توترى لأشده ، لاحظ " موسا " ذلك ، فلاحقنى بنظراته ؛ ليهدئ من روعى ، ولكنى حنقت عليه وهو الواثق ، وقد مر من عنق الاختيار ، ولم يُصبْ باختناق الفشل .

بدأ الكاهن الأكبر بالفعل الحديث في اختيار الفتيات ، سقطت نظراته الفاحصة على الفتيات وأنا وسطهن ، ارتكنت لجمال تكويني مؤكدة لنفسى اختياره لى ، طلب كبير الكهنة منا جميعاً ، أن تتقدم أمامه فتيات الموسيقى ، تهاوت أحلامى ، وأصبت بالذهول ، وحدثت نفسي بصوت ربما سمعه من بجوارى " إذن اختياره لن يشملنى ؛ لأننى لست من فتيات الموسيقى أو الغناء " !!

تقدمت الفتيات أمامه ، وبدأت نظراته فى الاختيار منهن ، واحدة تلى الأخرى ، وكلما اختار واحدة تصبب عرقى بغزارة من مسامه ، التصق شعرى بجسدى ، والتصق ثوبى بساقىّ ، صرت كما لو أن أحدهم سكب ماءً على رأسى فجأة ، إلى أن أتم الكاهن الأكبر اختياره كاملاً ، أما باقى التفاصيل الخاصة بهذا العمل ، فلم تصل لأذنى البتة .

---

(١) دى - عنخ - جت : الحياة - الأبدية - الخلود .

أفقت على تفردى بفناء المعبد كعود يحمل زهرة لوتس واحدة ، تتلقفه رياح الأفكار ، تتهاوى به يميناً قرب الانكسار ، ثم تأتى رياح أخرى من الجهة المضادة ، وتكرر معه تجربة الاقتراب من الموت ذاتها ، فسألت نفسى :

- أين ذهب الجمع .. ؟ و " موسا " هلى تركنى دون حديث هكذا ؟

أجبت نفسى وكأننى أهذى

- ربما أمرهم الكاهن الأكبر بالانصراف ، فلم يجد أمامه سوى الانصراف ، لم تواتنى رغبة النظر تجاه مظلة الكاهن الأكبر ، استدرت منصرفة ، حينما جاءنى صوته فى ذات اللحظة

- إلى أين يا فتاة .. ؟

صعقت ، استجمعت شتات نفسى ، فعاد لجسدى بعض انتصابه ، ولعينىّ بعض لمعانها وواجهته :

- أمرك يا سيدى . أجبت بما استجمعته من ثقة وقال وابتسامة لها معنى ترتسم ببطء على وجهه :

- ما هذه الحالة التى تبدين عليها ؟

فابتسمت مكتشفة أنه مطلع على ما كنت أحاول إخفاءه :

- إنه فقدان الأمل ياسيدى .

تحدثت إليه وأنا أسير ببطء تجاهه ، وعند القرب سقطت أمامه على ركبتىّ .

- وأين فقد أملك ؟

أجبت اعتقاداً منى أن الصراحة قد تؤهلني عنده لما أتمناه :

- هنا سيدي عندما لم يشملني اختيارك الكريم للمثول أمام الحاكم في الاحتفال الكبير ، ألم ترني سيدى فى الاحتفال الكبير بالنهر الحانى ؟ ألم أنل إعجاب النبلاء برشاقتى وثقتى ؟ ألم أحصل على العمل هنا بعد أن أثبتُ جدارة في هذا اليوم ؟ حقيقة لقد رشقت ثقتى بسهام تجاهلكم لى ، فأصبت فى مقتل .

تركنى الكاهن الأكبر أتحدث ، حينما انتهيت من حديثى كانت ابتسامته قد ارتسمت كلية على وجهه ، وحددت ملامحه وملامحها ، إذا لم أفقد الثقة فى خبرتى بالرجال ، فهذه النظرة كانت من ذات النظرات التى تلاحقنى فى الدروب ، لا تختلف عنها فى شىء سوى فى كونها من الكاهن الأكبر ، حدثت نفسي بما حدثت ، تلمست إعجابه الخفي ، فبدأت ثقتي بنفسى تعود لى - دون استجدائها - هجمت الأفكار الكثيرة علىّ رغم كونها اللحظة فقط التى صافحت نظراتى وجهه عدت بها للأرض وقد تأكدت مما يعتمل بداخله ، فقال :

- هل لديك شىءٌ آخر يضايقك ، فتبوحين به ، فأنا لا أظهر للعامة كثيراً ؟

- أجبته ومازال وجهى للأرض :

- لا يا سيدى .

قال ونظراته أحسها على وجهى وأجزاء جسدى المتفرقة يعب منها ما يريد :

- الهذا فقط كل ذلك التوتر ؟ كان من الأجدر أن تقولى لى ما ترغبين .

قلت له سريعاً ، وبثقة :

- وهل سيتحقق كل ما أريده ؟

- على أولا أن أفكر فيه .

قلت :   - وبعدها .

كان ينتظر منى هذا الرد تحديداً ، هذا ما فهمته ، فأجاب :

- بعدها ! .. هذا دورك أنت !

لم أجب ، ولم أرفع رأسى ، كل ما فعلته هو الحملقة إلى أرضية المعبد المبطلة ، توقف تفكيرى تماماً فى هذه اللحظة ، أرجأته لوحدتى ، خاصة وأن نظراته تخترقنى ، وتبصر ما أفكر فيه .

عندها ضحك بشدة ، وقال :

لك يا " ميرت " جسد رائع وشعر جميل ، وبخصوص عرقك ، فإنك تمتلكين عطراً فواحاً !

سجلت دهشتى أعلى منسوب لها ، إن الكاهن الأكبر يعرف اسمى جيداً ، وما قاله بخصوص تفاصيل جسدى ، فهل يريدنى ؟ فقال سريعاً كأنه يري تشكيل الكلمات بمغاراتى :

- نعم أريدك ، إن قبلت فعليك فقط إبلاغ المشرف على الموسيقى ، أليس هو من يشجعك ؟

لم أقل شيئاً ، ولكنى رأيت الأعمدة حولى تدور ببطء ، ثم بسرعة ، وتتشابك من أعلى مشكلةً قضبانًا حول أفكارى ، فاتخذت وضع السجود ، ليس له ، فقط لأريح رأسى ، كل ما سمعته بعدها هى أوامره للخدم بحمل المحفة ، وضحكاته العالية الواثقة ، وصوت بكائى يعلو ويعلو ، ودموعى تبلل وجهى ، وأرضية المعبد تحته . !

- ٩ -

تلك رياح برمودة ، وربما بشنس ، تنشط تلك الرياح ذات الصهد ، تزأر من النافذة فتصل إلى كومة عظامي بالسلة ، تصفّر حينما تنفذ من بين فتحات عظامي المتكومة ، وتنفض الغبار المتراكم برتابة على عظامي ، فتتغير تأريخ الزمن لمن يؤرخ لحضوري بمقدار الأتربة المتكومة على عظامي .

يخرج طلبة العلم إلى شيخهم بالحجرة ، ويدخلون ، لم يكلف أحدهم نفسه مشقة السؤال عن وجودي ، وأنا التي إذا ما ظهرت بمكان تحول ذلك المكان إلى ساحة كبيرة تحتفي بي ، وحولت نظرات الكهنة لي ، وأدرت دفة أعمالهم تجاهي ، أنا التي صب الجمال سائله على جسدي ، وسبحت في بحيرة الدلال ، أنا التي كسر الحاكم من أجلها قانونه ، وتزوجني ، ولم يأبه كثيراً لتوسلات زوجته الرئيسة ، هناك وقد أدرت رؤوس العامة من فلاحين وحرفيين ، وملأت خيالاتهم بالقصص . أنا التي كنت ثمرة الفاكهة الطيبة والمحببة لجميعهم ، كيف لي وهذا المكان المنزوي ؟ أي عصر أعيش هذا الذي أكون فيه كومة عظام ؟ أين وصيفاتي التي أخذن على عاتقهن تزييني ؟ هل كُن يزين زوجة الحاكم ، أم يستمتعن بتزيين الجمال وإبرازه ؟

ما زالت الرياح الحارة تلفحني .. وهذا الوقت أشبه بذلك الوقت – رغم فارق الزمن – حينما توسل إليّ " موسا " بقبول دعوته لزيارة منزله ، والتعرف على أمه وأخته " تي " اللتين تعلل بهما لدعوتي فيتعرفان

علىّ ، وأهدئ قليلاً مما آل إليه حالى بعد الالتقاء بالكاهن ، واستبعادى من بهجة الاحتفال ، وشرف لقاء الحاكم ، لم أستطع إخبار " موسا " بما عرضه علىّ الكاهن الأكبر ، لم أستطع أن أقول له : إن ما جذبه لى قد لفت أنظار الكاهن الأكبر قبله ، كان سيقول لى وقتها : إنه يحبنى ، وإن ما جذبه لى هو مميزات شخصيتى ، لو قال لى ذلك وقتها لقلت : إنه هراء . إن ما يجذب الرجل للمرأة فى البداية جمالها ، وحينما يقترب - إن أراد - يدرك بعدها أبعاد شخصيتها مع الوقت ، وإلا لكان للكاهن أيضاً عذره المقبول فى أن مميزات شخصيتى هى ما جذبته لى ، مع فارق ما يرجوه منى .

كنت أسمع توسلاته لى بضيق ، لم أستطع أن أظهره له ، لأننى لم أحدد بعد ما سوف أقدم عليه ، كان دائماً يأخذنى تفكيرى عن كل ما حولى ، ودائماً ما يأتى " موسا " إلى حجرتى ، ليساعدنى كما العادة ولكنى لم أذهب لدروس الهارب كثيراً ، خاصة وأن اختيارى لحضور الاحتفال لم يعد مقروناً بإجادتى العزف على الهارب ، بل إن تلبية ما طلبه الكاهن الأكبر منى لن يتيح لى حضور الاحتفال فحسب ، بل سيفتح لى أبواباً من الأمل أوصدتها بنفسى ؛ لصعوبة الدخول منها .

كنت أترك " لموسا " مهمة القيام بأعمالى ، وأجلس متكئة لإحدى جدران الحجرة ، اعتقد أن ما وصل إليه حالى مرده حرمانى من الاحتفال ، هذا ما جعله يمعن فى إرضائى ، ولكن الحال لن يتغير إذا ما أدرك طبيعة تفكيرى فحسب بل سيتبدل تماماً .

ظللت على صمتى الدائم إلى أن أعلن الكاهن المشرف على الخدمة بأننى أستطيع بأن أقضى اليومين القادمين بمنزلى كإجازة ، وستحل محلى إحدى العاملات البديلات ، وكانت هذه من سمات العمل بالمعبد ، لا أنكر أننى وددت لو أبقى بالمعبد ، خاصة وأن " موسا ؛ يقوم عنى

بأعمـالي ، ولكن تعليمات الكاهن صريحة ، إلى جانب مظهرى الذى يجب أن أحافظ عليه ، والذى يتطلب تظاهرى باللهفة لإجازة أستمتع بها وسط أسرتي .

عند ذلك تذكرت أمي ، ومـا وصل إليـه حـال عـقلهـا من تدهور ، وخيالاتها التي أضحت حقيقة نعيشها ، وأخي الذي عرف ما استطعنا إخفاؤه ، وزوجته التي ستغير حالها من حاسدة لم وصلت إليه بوظيفة المعبد إلى شامتة لما سُقطت فيه ، بعد أن صرحت أمي بمكنون بنفسها .

كنت أنوى أن أطلب من الكاهن تحويلى إلى متفرغة مقيمة بالمعبد ، فيوفر لى ذلك مكاناً ثابتاً آوى إليه ليلاً ، فلا أعود للمنزل أبداً ، ولكن ظروف المعبد منذ التقاء الكاهن الأكبر بنا لم تتح لى فرصة التحدث عن هذا الشأن ، ولم يكن أمامى إلا أن أقبل دعوة " موسا " أو العودة للمنزل .

كان الخياران موحشين في ظل حالتى المتدنية ، ولكنى لم أستطع قبول فكرة بقائي يومين كاملين بالمنزل ، فقبلت دعوة " موسا " التى ما برح يعرضها عليّ .

خرجنا من المعبد فى المساء وقد تخليت عن وجبة الطعام التى يوزعها الكاهن فى المساء لإحدى الفتيات ، سلكنا طريقاً مغايراً تماماً لذلك الذى نسلكه دوماً باتجاه منزلنا ، عبر الزراعات والهواء الرطب المعطر ، شققنا طريقنا ، كان دوما ما يسلك أولاً ليختبر موطئ قدميّ ، منزله بعيداً فى قرية بالجوار تلاصق قريتنا من الجهة الجنوبية ، وكانت فى مظهرها البعيد تشبه قريتنا تماماً من حيث أشكال منازلها ، وإطلالها علي النهر ، قرب الوصول استطاع أن يصل إلى يدى الباردة ، فلمسها ، لم أبد معارضة ، تناولها بكل يده وضغطها ، رغم ما شعُرت به يسرى

بأوصاله لم يوثر ذلك فىَّ البتة ، كان عقلى يجول بعيداً ، ربما فى أجواء المعبد ، وربما قرب مكان الاحتفال الذى يُعد الآن بجدية ، ولن أكون فيه .

قرب الوصول سحبت يدى بهدوء ، فتركها ، دخلنا دروب القرية ، وعرجنا إلى دورب نظيفة ، تأخذ المنازل معها أشكالاً منظمة ، وبعضها له حديقة غناء ساكتة الآن تحت الليل الربيعى إلا من رائحتها .

مكثت فترة بالحديقة النائمة وقد سبقنى " موسا " للداخل ، لم يطل بقائى منفردة ، رغم ذلك امتد حبل خيالى وعاد ، حيث الكاهن الأكبر يجلس على كرسيه وأنا ساجدة أمامه من هول ما سمعت ، لم يمهلنى " موسا " للاستغراق فى خيالاتى ، فخرج ووراءه أمه وفتاة عرفتها أخته ، ربطهما تشابه الملامح الواضح والهدوء العجيب .

حقيقة كان لاستقبال أمه وأخته أثراً كبيراً لاستعادة هدوء نفسى ، بدا المنزل من الداخل فى صورة رائعة ، وقعت نظراتى على أشياء لم أعرف كنهها فى البداية ، لكن ذكائى الفطرى ساعدنى بشدة لمجاراة ما أراه ، أجلستنى أمه على المقعد المفروش بالأبسطة المزركشة ، ألقيت نظرة خاطفة على كل ما أراه بالمنزل ، أشد ما لفت انتباهى تلك الآنية التى وُضعت فيها الزهور الملونة ، والتى تضفى بهاءً رائعاً ، وقتها تمنيت أن أمد يدى وآخذ إحداها أتشممها ، وتساءلت : منذ متى وأنا أمنى نفسى بإحدى الزهور ؟

أحضرتنى أمه من أفكارى مرحبة ، بينما أخته تُعد العشاء بالقرب (على ظهر منضدة تشبه منضدة القرابين بالمعبد) ، فقط قصيرة الأرجل ، أما الجدران فكانت مغطاة بطبقة من الجص الأبيض الناعم ، ملونة بمناظر الطيور والنباتات المبهجة .

أستأذن " موسا " أمه ، فأخذ بيدى لحوض مبلط ، صب الماء على يدى ؛ لأغسلها ، سقطت نظراتى على الماء وقد سار بالمزراب إلى أن اختفى في باطن الأرض ، فعدت إلي الجلوس هذه المرة أمام الطعام الذى تكون من قطع اللحوم المتبلة بأنواع لا أعرفها من البهارات ، مع قليل من الجعة ، ونوع من الخبز دخل اللبن فى صنعه أستطيع أن أميز طعمه عند مضغه .

بعد العشاء صب " موسا " الماء لأمه أولاً ، ذلك الاحترام بهرنى ، ولكن الوقت لم يتسع لعقد مقارنات بينه وبين وأخى ، حياته وحياتنا ، كنت ألحظ كل ذلك فقط .

قادتنى " تى " إلى حجرتها الخاصة ، نُصب بها سرير خشبى تُرك على لونه ، له قوائم علي شكل رأس الربة الحامية " حتحور " بأذنى بقرة وقرنيها ، وقرص الشمس الجليل بينهما ، قبل الدخول معها فى حديث استكشف به المزيد من أخبار الحياة بهذا المنزل المصنف بقريتنا من منازل النبلاء طرقت أم " موسا " الباب مستأذنة فى الدخول ، دخلت وقد أمسكت بيدها صندوقاً خشبياً مفتوحاً ، لمحت فى صناعته صانع السرير ، وبه حُق دهن ، ومشط علي شكل زهرة اللوتس المتفتحة ، وبجواره ثوب حريرى من سوق جبيل[1] جلست جوارى وقد شملتنى نظراتها الحانية قائلة :

- مرحباً بك يا ابنتى فى منزلنا

تشكرت لها حسن استقبالها لى ، فناولتنى الصندوق الخشبى ، قائلة :

- إليك منى هدية صغيرة أتمنى أن تنال إعجابك

---

(١) أسواق لبنان .

لم يكن إعجابى فقط هو كل ما بداخلى ، وكان الذهول من المشاعر التى أحسست بها وقتها ، حال المنزل ، طريقة التعامل الرقيقة التى تطعم بها الأم وليدها ، أدركت وقتها مصدر هدوء " موسا " ورقته التي طالما استوقفتني لم تكن شخصية " تى " بالمرونة التى تتيح لى صداقتها من اللقاء الأول ، رغم ذلك لم تكن منفرة ، أما حالتى فى ذلك الوقت فكانت السبب لهروب رغبتي من اجتذاب صداقتها .

في الصباح كان على أنفى تتبع زخم العطور الطبيعى ؛ لأصل إلى حديقة المنزل ، أشجار باسقة ، وعطور متداخلة كونت فى النهاية الغلالة العطرية الخاصة جداً للمكان ، كان لها من النظام والروعة ما جعلها متفردة تماماً ، لا أنكر أنها - بخلاف نبات البردى وزهور اللوتس التى تنمو برغبة الإله على ضفاف النهر - كانت المرة الأولى التى أتجول فيها بين الزهور والأشجار .

وصلت إلى نهاية الحديقة ، كانت هناك (تكعيبة) مقامة من سيقان النخيل المشطورة نصفين ، مرصوصة علي شكل دائرة ، أما سقفها فقد اتخذ شكلاً هرمياً كجوسق التمثال ، ابتسمت ؛ فللعقل المتخم بالثراء أفكاره الفريدة ، أما شجرة الكروم التى عرفت طريقها لفلوق النخيل ، استطاعت أن تؤكد للناظرين إبداع الخالق .

ما زال الهدوء يشمل المكان ، فلا أثر لعجائز يسكنَّ الدرب ، أو لفلاحى البكور .

خلف المنزل سكنت البركة الصغيرة والسحاب يطفو على سطحها ، وإوزّ المنزل الرمادى يحاول إغراقه ، أما المنزل من الخارج فكان من حجر الجير الأبيض الناصع المزين من أعلى بإفريز من حيات الكوبرا ، جلست

على سور البركة - قليل الارتفاع - سحبني الكاهن الأكبر بقوة شخصيته ؛ لأفكر فيما عرضه عليَّ .

لم أنكر على نفسي محاولة تقرب أم " موسا " لي ، ربما اعتقاداً منها بأني زوجة ابنها المستقبلية ، وهذه الحياة التي يحياها " موسا " أمل كل الفتيات ، وربما أكثر من آمالهن ، فكيف لفتيات دربنا أن يتمنين ما لم تدركه أعينهن ، ولكن الحال بالنسبة لي مختلف ، في ظل ما بسطه الكاهن الأكبر أمامي من آمال .

مقارنة منزل صغير بقصر الحاكم لن تكون أبداً لصالح المنزل الصغير ، و " موسا " نفسه إلى جوار الحاكم قزم معطل الأوامر وأنا بجوار الحاكم أميرة متوجة .

ربتت يد " موسا " علي كتفي ، فطار سرب أفكاري ، سمح له هدوء الصباح بإمساك يدي ، ولكني لم أتركها له كثيراً ، استعدتها بسرعة فقال :

هل بقي من ذلك الاجتماع أثر بنفسك ؟

هززت رأسي بالنفي ، فقال :

- إذن من سلبك مرحك ؟

واجهته قائلة بدهشة :

- مرحي ؟!

قال وقد انفرجت شفتاه عن نصف ابتسامة :

- مرحك ، والتماع عينك ، ودفء يديك .

قلت له وقد ضاقت عيناي إلا من شريطين :

- إنك متوهم ، فأنا لم تكن بي يوماً هذه الصفات .

قال وقد اتسعت ابتسامته ؛ لتثقب هدوءه ، وينبثق منه الشطط :

- إذن لمن صيغت هذه الصفات إذا لم تكن لك ، فأنت أجمل من عرفت ، حينما يطل الحزن من عينيك تزدادين سحراً ، وإذا أطل انكسارك تزدادين قوة ، وإذا ......

قلت له وثقتي تتلوى ببطء :

- كفى أكاد أصدق .

فرح لاستجابتي ، تقافز في مكانه ، وقال :

- فليتأكد صدقك إنها أمنيتي أن تتوجي أميرة على عرش هذا المنزل ، أشار بيده إلى المنزل خلفه

جريت اتجاه الداخل لأمنعه عن المضي فيما يقول ، فاستقبلتني أمه مرحبة .

- ١٠ -

كان للأيام التالية طعم محايد ، فلا الحزن تمكن منا ، فنضح من تصرفاتنا ، ولا الفرح بدا علينا لفراق الجدة وبخصوص الجالسات فى الدرب ، فقد واصلن جلوسهن دون أن تبدو على جلستهن تغير يذكر ، وثوبى الذى بدأت أفكارى تفتش عنه فى الأماكن التى اعتقدت أن أمى خبأته به ، تحركت أعضائى بفعل قوة أفكارى للبحث عنه أيضاً ، فبحث عنه داخل الصندوق الخشبى العتيق ، بقايا عرس أمى ، فلم أجده ، وكذلك داخل صومعة القمح الفارغة حتى آخرها ، والتى تقف بجوار المتلئة ، وقادنى تفكيرى بغير هدى أسفل الحصر ، وفى الأماكن المظلمة والشقوق ، قرب اليأس هدانى التفكير للسلة المدلاة من عروق الخشب بحجرة السطح ، فوجدته ، يونس المكان بدقة نسجه ، لمسته يدىّ أخيراً ، ثم لفته حول جسدى فتوارت قسماته الصريحة لتحل محلها قسمات لينة ، تظهر بوضوح أكثر أسفل الثوب ، إن الثوب لدليل معلن على جمال الجسد ، أتحدث الآن وأنا أعرف من خبرات الحياة الكثير ، بعد أن مررت بمرحلة الصبا ، والشباب ، وما بعدها ، أما ما فكرت فيه قديماً ، فكان الثوب لى ستراً عن العيون الفاحصة ، ولأمى دليل رفاهية يجذب عقول الشباب لخطبتى . أما وقد اكتمل نسجه ، وصار فى متناول جسدى ، فَلِمَ لا ألبسه ؟ حدثت نفسى بما حدثت ، وأمعنت التفكير فى أسرع الطرق لارتدائه ، أمى هى التى تملك مفاتيح ذلك ! إذن كيف لى وإقناعها بسرعة الانتهاء من حياكته ؟ وجدت نفسى على حالها من

التـفـوه بما يدور بداخلي ، أعـدت النسـيج مكانـه وهبطت درجات السلم حيث أمـي وهي جالسة قرب الفرن بجوار جدار المنزل الخارجي المطل على الزروع ، فرغت من إعداد أرغفة الخبز ، جلست جوارها بهدوء ظاهرى ، وعقلى يعمل بكل جد فى إيجاد الطريقة التى تتحمس بها لحياكة الثوب .

ظللنا صامتتين ثم تحدثت إليها وقد رسمت على وجهى علامات ذعر مقنعة :

- أمي لقد رأيت قطرات دماء وحيـدة تتدفق هنا وأشرت لها على الجزء الحرج منى .

لم تتحـدث ، لكنها تابعت حديثى باهتمام ، نقلت نظراتها ما بين وجـهى والمكان الذى أشـرت إليـه ، ثم نظرت إلى الفـرن التى مـازالت متوهجة ، وقالت :

- أين آثاره ؟

قلت لها :

- اغتسلت منها قبل مجيئك .

لم تتحدث ، فعدت للحديث :

- لقد ارتعبت من مرآها .

قبل إتمام حديثى عادت ، ونظرت إلىّ ، ثم قالت :

- فتـاة خبيثة مثلك لا ترتعب ، ألم تنتظرى ذلك ؟ ألم تطلبى الثوب لتخفى به ما سوف تكمله لك

" حتحور " ؟

ثم أضافت وقد أشاحت بوجهها كلية عن كل شيء حولها :

- إن ارتعابك هذا يدهشنى .

تركتها ، وعدت لمكاني بالسطح ، وقبلها عبرت علي حجرة زوجة أخي المتكئة علي مسند رأسها المبطن بالنعومة ، فنادتنى بلهجة آمرة لم أملك معها إلا الانصياع ، فقالت :

- أهملت شئون المنزل تماماً مؤخراً ، يجب أن تواظبى على المشاركة للتعلم ، كما الربة حتحور لا تؤجل عمل يومها إلى الغد .

استوعبتنى عيناها من أخمص قدميَ حتى شعر رأسى ، وأضافت :

- عليك من العمل مثلما عليها .

فار فمها بضحكة فلم انتظر ، بل ارتقيت السلم سريعا ، وقد بلغ حنقى منها الذروة .

لم تأت الأيام التالية بجديد ، تصرفاتنا جميعها كانت عادية ، ومثيرة لزوابع القرف بداخلى ، إلا مواظبة " رخميرع " على الذهاب إلى المعبد ؛ لتفقد حال تجفيف جسد جدتي ، والانتهاء منه تماما ، ومواظبة زوجة أخى على العناية بنفسها ، وأولادها ، إلى أن صارت مضرب الأمثال لنساء الدرب ، وأمى وهى تتحمل القيام بمعظم أعباء المنزل ، وضغطها المستمر على لمشاركتها فيه .

أيقظتنى تقلبات أمى القلقة في مرقدها ، والسماء الكالحة التى تطل من علٍ ، تذكرنى برحلاتنا السابقة إلى البركة ، لم ابد حراكا ينم علي استيقاظى ، ولم تدرك أمى يقظة أفكارى التى تملأ مضجعى ضجيجا ، استقامت بحذر - أدركت حذرها لحرصها على ألا تحدث أصواتاً البتة -

فزادت حساسية حواسى لكل حركاتها - أمالت الجرة ، فرق لها الماء على كف يدها ، ابتلعت جزءاً منه ، ومسحت بباقيه وجهها ، تسللت لخارج الغرفة ، وسمعت حفيف قدميها علي الدرج ، وباب المنزل المطل على الدرب وهو يقفل بحذر ، لم أكن لا أسمعه لولا قياس حواسى لزمن هبوطها الدرج ، وقطعها مسافة السقيفة بأسفل .

حقيقة جفاني النوم بعدها متسائلة : تُرى أية جهة سلكت بكل هذا الغموض ؟ وكل الأفعال خافية وراء ستور الليل .

انتظرتها وقتاً طويلاً ربما ساعتين ، ولكن النوم هجم من مكان ما ، لم أستطع معه إلا الاستلام له .

بحثت عن نسيج ثوبى هذا الصباح فى مكانه ، فلم أجده . اعتقدت أن أمى خبأته فى مكان آخر ، فتوقفت محاولات بحثى ، فى الأيام التالية عاودتنى رغبة رؤيته ، تكرر ما حدث سابقاً ، سألت أمى ، فلم تجب مما أثار ضيقى .

أثار أخي موضوع الكتان ثانية بعد أن قدم من المقبرة ، واجهته أمى بعصبية قائلة :

- لك ما شئت فى عدم تصديقى ، فقط لا تكرر ما قلته .

أعاد عليها سؤاله بإلحاح :

- أين لكم والكتان ؟

فلم تجب ، وانطلقت تعدو هرباً من أمامه ، كأنها تهرب من ظل " بر - عا "[1] .

---

(١) برعا : الفرعون - فأل سيئ أن يسقط ظل الفرعون على أحد العامة .

أستطيع أن أذكر موكب الجدة الصامت من المعبد لمثواها الأبدي ، اصطحبتني أمي في الصباح للذهاب إلى المعبد ، قابلتنا بعض العجائز المنتظرات الموت تباعاً في الدرب ، سار موكبنا صامتاً ، كنا حوالى السبع ، أنا ، وأمي ، وخمسة من عجائز الدرب ، رفيقات عمر الجدة ، التقينا بـ " رخميرع " عند درج المعبد المؤدي للدور العلوى المبلط ، صعد " رخميرع " الدرج الحجرى ، وانتظرنا نحن بأسفل ، عاد سريعاً وقد حمل جدتي ملفوفة بذات الحصيرة التى أشارت لها أمى من قبل ، وقد ساعده فى حملها أحد الخدم ، تقدمنا فسرنا وراءه ، بدأت إحدى العجائز في نواح خافت ، أعقبته الباقيات بالترديد إلى أن وصلنا لتلك الحفرة المعدة سلفاً ، رقدت جدتى على جنبها الأيمن باتجاه غروب الشمس ، وبمساعدة " رخميرع " والآخر ، حركا ساقيها لتأخذ وضع القرفصاء ، ليحميها من برد الوحدة ، ثم وارياها الرمال والنواح على أشده ، في رحلة العودة التي انحسرت إلا مني وأمي والعجائز ، كان مشهداً صامتاً تماماً ، كأن العجائز وأمي دفنّ أناشيد حزنهن مع المتوفاة .

كثر تسلل أمي ليلاً ، وقضاؤها شطر الليل الأخير بالخارج ، كان النعاس يغلبنى حيناً ، فلا أحس عودتها ولكنه لم يغلبنى أحياناً أخرى ، فأنتظرها وقد عادت على تلك الهيئة التى أبصرتها بها ليلة لقائها وحارس الكتان ، متعبة ، مبعثرة الشعر ، ناقمة ، حتى إنها لم تكن تبالى إذا ما ادعيت الاستيقاظ من كثرة ما تصنعه من حركة .

فاجأتنى به يوماً ، فى الصباح الباكر ، فصدق حدسي بخصوص خروجها ليلاً ، أيقظتني والثوب بيدها ناصع البياض ، يعكس أشعة الشمس المنبعثة من فتحات الجدار ، ويؤكدها ، لا أنكر أن فرحى به قلص الإحساس المتولد من اكتشافي لحقيقة خروجها ، فالثوب وهو الحقيقة الآن سوف يراه الناس جميعاً ، أما خروجها فكان فى طى

الكتمان إلا من همس نفسى ، سألتها وكان لسؤالى شطر خفى أتلمس منه الحقيقة :

- من صبغه لك يا أمى ؟!

أجابت بفخر عقيم :

- لقد صُبغ كما لم يصبغ ثوب لفقير أبداً .

فلقد نال شرف صباغته بمصابغ الحاكم ، حيث ثياب زوجته وبناته .

قلت لها والحيرة الظاهرة على وجهى لا أثر لها بأعماقى :

- أين نحن ومصبغة الحاكم ؟!

أجابت وقد تحول وجهها لكتلة جمود ألفتها : وأدرك متى تكسى وجهها بها :

- إنه حارس الكتان الطيب ، الذى أهدى لنا حزم الكتان ، أتذكرين ؟

قلت ولها ومزيد من النهم لمعرفة الأكثر ينهشنى :

- إنه حارس الكتان ، ماله والصباغة ؟

فردت : جاملنى بصباغة الثوب ؛ إتماماً لمعروفه .

صمتُ وصمتتْ ، ونظراتى التى تفضح اطلاعى على كل ما دار تفضحنى

لم تدع لحظة تمر ، كانت قد أحضرت سلفاً مقصاً مسنوناً من معدات " رخميرع " ، فشرعت فى قص وحياكة الثوب الذى ما غربت الشمس

إلا وكان قد اكتمل .. حقيقة المرور على هذا الموقف وتلخيصه صعب على نفسي ، فلقد تعلقت عيناي به وهو يشكل ، ولم أود مطلقاً أن تقص منه الفائض ، كنت أود منها أن تبقيه بالداخل ، ويستطيع الخيط والمخيط إخفاءه ، ولكنها أرادته - كما قالت - عملاً عظيماً .

وبخصوص شرائط الفائض فلقد صنعنا منها ضفيرة متقنة كانت حمالات الأكتاف .

لملامسة الثوب لجسدي إحساس ممتع ، انزلق الثوب عليه ، وانحدر بنعومة إلى أن غطى ركبتيّ ، استقرت حمالاته على كتفي المستديرة ، فكان مربع صدري منيراً ، عند الخصر كانت أمي قد سحرت الخيوط ، فعرفت طريقها جيداً ، وعلمت سلفا نحافة خصري ، فاستعدت له ، والتفاف الثوب الذي ينفرج مع خطواتي ويضيق ، فيُظهر استدارة الجسد ورشاقته ، وصلت ثقتي بنفسي أعلى قمتها بارتدائه وإخفائه لمعالم خجلي ، وانتظرت الصباح الذي سوف يأتي على صديقاتي فيرونني وقد ارتديت من ايات " رع " أروعها ، وتزينت من " باستت " دلالها ، ومن " حتحور " رشاقتها ، ودقة صنعها .

لقد كان موسم إزهاري ، فحصدت رؤوس الفلاحين في الحقول ، أما العجائز في الدرب فقد اتسعت عيونهن لتشمله ، كأنه باتساع الأرض !!

- ١١ -

استطعت أن أسكن قلب أم " موسا " ، فعاملتنى بمودة ، ولكن أسئلتها بخصوص أسرتى كانت تضايقنى ، رغم ذلك رددتها جميعاً ، وبصراحة متناهية : لما لمسته من اطلاعها على كل حالى .

فجراً في طريق العودة إلى المعبد ، والهواء المنعش يعبث بخصلات شعرى السوداء ، ويدس طرف ثوبى بين فخذى ، فيجسد انحناءات جسدى بدقة ، اقترح " موسا " الذهاب إلى ضفة النهر نلهو قليلاً ، وافقته فإذا بالنهر ينتظرنا ، تقدمت وسط الحشائش والأزهار التى نمت هنا وهناك إلى المياه أغرف منها بكفى ، أغسل وجهى ، وأرطب كتفىّ ، و " موسا " يلعقنى بنظراته ، شعرت بقليل من الارتباك ، رششته بالمياه فضحك ، تناول يدى ؛ لنعود إلى طريق المعبد ، وأسراب الطيور المائية ، وأفراس النهر العائمة تودعنا .

تركنا بساط أزهار اللوتس وأدغال النهر وراءنا ، تخطت أقدامنا بوابة المعبد فانفصل كل فى طريقه ، عدت لأدواتى فى الحجرة ، أعد المباخر بوضع جمرات خشب السنط أسفل المبخرة ، ثم رصصت قطعًا من خشب الصندل العطر ، والخشب المشبع بالزيوت العطرية المعدة فى حجرات المعبد الخلفية عليه ، وقليل من الحبهان ، ولبان الذكر ، والمر ، والسمار الحلو ، وزيت الخروع ، ففاحت الرائحة المعتادة .

بعد أن حمل الخدم المباخر لوظيفتها الطقسية ، دخل إلى الحجرة المشرف على حجرات المعبد ، أبلغنى بموافقتة على ما قاله له " موسا "

من رغبتي فى الإقامة بالمعبد وتخصيص حجرة صغيرة لى تشاركني فيها إحدى الفتيات ممن لهن عمل بالمعبد ، شكرته ، ألقى حديثه وانصرف ، فحمدت " لموسا " صنيعه .

في استراحة الضحى ، شنفت أذنيّ الأصوات المنبعثة من حجرة الموسيقى ، كان لحناً متناغماً ، بدأت الموسيقى تعزف بالقيثارة التى دوماً ما رأيتها وأخواتها على رفوف الحجرة ، وقد نحتت على شكل فتاة جميلة ترتدى النمس والصدرية ، استغل النحات اعوجاج ناب الفيل الضخم - المصنّعة منه القيثارة - فشد بين طرفيه أوتاره ، ثم تلاه الهارب بنغماته ، تداخلت النغمات وامتزجت ، تدخل الناى الحزين ؛ ليصاحب اللحن ، ويترقرق معهما فى جدول النغمات .

كان الحن يعلو ويعلو إلى أن دخلت الصلاصل والصنوج معلنة عن بدء الإنشاد ، تدخلت الفتيات بأصواتهن يشاركن الآلات ألحانها ، وقد حدثني تنبُئِى أنها تلك الأنشودة التى ستشدو بها الفتيات أمام الحاكم ، كانت رقيقة ، ناعمة ، تستطيع الآلات معها أن تعزف بمفردها ، وبتشجيع العازفين لها فقط .

" أقضِ يوما سعيداً ،

وتمتع بأحلى الروائح العطرية ،

وزين عنق زوجتك بأزهار اللوتس ،

واحتفظ بمحبوبتك جالسة إلى جانبك دائماً .

لا تأمر الموسيقى أو الرقص بالتوقف .

ولكن مُر الهموم بالانصراف

لا تفكر فى شىء غير السرور

إذ سرعان ما سيأتى دورك

لترحل إلى عالم السكون "

لم أفكر أبداً فى الذهاب إلى حجرة الموسيقى ، بعد أن اتضح لى الدور الآخر للكاهن المشرف ، ولكن الموسيقى تفرض حضورها علىّ ، جلست فى أقرب ظل لحجرة الموسيقى ، صانعة من ساقىّ هرمين صغيرين ، ربعت عليهما ذراعىّ ، ثم اسندت ذقني عليهما وانصرفت نظراتى لباب حجرة الموسيقى .

خرج الكاهن المشرف من حجرة الموسيقى ، سار على نفس شريط الموسيقى المنبعث منها إلىّ ، وقف أمامى ماداً لى يده ، مددت يدى إليه ، رفعنى ، فانتصبت أمامه ، أمرنى بعد ذلك بالسير وراءه لحجرة الأوانى الخاصة بى .

من حجرة الأوانى الخاصة بى إلى " داخلة " صغيرة بالحائط ما إن مد إليها يده حتى انفرجت عن حجرة صغيرة مخصصة لحفظ أكياس البخور ، ومنها إلى باب مؤدٍ إلى دهليز طويل صفت على جانبيه طاقات الضوء ، فى نهاية الدهليز كان الدرج الحجرى المؤدى لأسفل معتماً قليلاً ، امسكنى من ذراعى ، وهبطنا الدرج الذى استدار ، وأفضى إلى دهليز معتم تماماً ، سرنا عكس اتجاه السير بأعلى ، قليلاً وظهر الضوء المنبعث من حجرة جانبية .

فى الحجرة الجانبية المضاءة ، استراح الكاهن الأكبر إلى كرسيه الآبنوسى الأسود ، ماداً ساقيه أمامه ، وقد استراحت قدماه ونامتا فى خف من قماش مزركش ، ابتسم لمرآى ، لم يصبنى الاندهاش لرؤيته ،

لأنني توقعت ذلك تماماً ، كأني أرسم لهم خطواتهم ، أشار لي بالجلوس على الكرسي المواجه له ، وأشار إلى الكاهن المشرف بالانصراف ، فهرول مسرعاً إلى خارج الحجرة ، قال وقد أولاني جل اهتمامه :

- أما وقد صرنا وحيدين ، هل فكرت فيما عرضته عليك ؟

لم أجب ولكن عيني جالت في الحجرة التي اصطفت فيها الصناديق ، وبعضها وضع فوق بعض بنظام ، أما الصناديق التي صفت بجوار الحائط الشرقي لباب الدخول والمتاخمة له ، فقد ارتفعت أغطيتها فظهر ما فيها ، بالنظر لتلك الصناديق أدركت ما في باقي الصناديق التي رصت فوق بعضها لتلامس السقف ، بل لتسنده - إن جاز ذلك .

كان بعض الصناديق حاوياً للحلي التي لم أشاهد مثلها من قبل ، والزبرجد ، والمرجان ، والعقيق ، والمفكات[1] ، واللازورد (حقيقة هذه الأسماء علمتها فيما بعد) وأخرى اصطفت فيها قوارير الزيوت العطرية ، وطيور منحوتة من الخشب ذات تجاويف صغيرة ، لها غطاء قابل للحركة خمنتُ أنها حقوق للدهان لما لها من تشابه والذى تمتلكه زوجة أخي ، وصناديق لجرار البيرة ، وأخرى للفائف ضخمة من الكتان ، هذا ما بالصناديق من حيث الكيف ، أما الكم فلم أستطع إحصاءه بالطبع .

قهقه عالياً ، مد يده إلى وجهي فأداره تجاهه وقال :

- أما وقد صرنا وحيدين .

قلت له ونظراتي بعيدة عنه رغم ثبات وجهي تجاهه :

- لم أفكر ياسيدي فيما عرضته علي .

---

(١) المفكات : الفيروز .

تجهم وجه ، وضغط بأصابعه التى كانت رقيقة ، قال :

- هل مثلك قادرة على قول ذلك لى .

ارتعش قلبى ولكنى احتفظت بثبات ظاهرى ، أدركت إنى ألقيت حجراً فى هدوئه فتعكر ، تراجعت عما قلته بهزات رأسى يمينا ويساراً وقد أعاقت أصابعه المنغرسة بقسوة في وجنتيّ حديثي ، وقال :

- اعلمى يافتاة أن بقاءك هنا مرتبط بتلبية ما أطلبه منك .

أدركت وقتها أنه صورة أخرى لحارس الكتان ، وأنى لابد أن أكون أمى ؛ لأجد لى قدما فى المعبد ، قلت له بصعوبة :

- إنى لمدركة ذلك تماما ، لكنه الخوف ياسيدى من افتضاح الأمر .

أدرك تراجع موقفى ، فأرخى يديه عنى ، وقال :

- لك ما تشائين ، إما أن ترحلى الليلة ، فلا أرى عينيك الجميلتين ثانية ، وأما أن تذرفى دموع ندمك عند قدميّ .

انزلق جسدى عن الكرسي ، وركعت أمامه ، قائلة :

- إنى أطلب رضاك ياسيدى ، وأنا الآن أقدم لك فروض ولائى .

عاد الاسترخاء يملأ وجهه ، ثم قال :

- ليس الآن بل الليلة ، تستطيعين الانصراف الآن .

قاومت بشدة إحساس المهانة ، وقفت أمامه ، هممت بالانصراف ، جاءنى صوته :

- من هنا ، أشار إلى سُلم خشبى بجوار الحائط ، وقال :

- احمليه إنك لقادرة .

أطعته فيما أمر ، أحضرت السُلم ووضعته حيثما أشار ، ثم أكمل :

- الان تستطيعين الصعود .

اتسعت عينى بقوة ، نفذت ما أمر به ، قرب سقف الحجرة كان هناك جزء لم يستخدم الحجر فى بنائه ، استعاض عنه البناؤون بالخشب ، الذى له لون الحجر وسمكه ، حركته فاتخذ مكانه جانباً ، ظهر اتساع يسمح بالعبور ، ازداد اندهاشى ، كانت حجرة الأوانى خاصتى ، صعدت إليها ، وأعدت لوح الخشب المتنكر لسابق مكانه ، قبلها لمحت وجه الكاهن الأكبر ينظر لى ، وابتسامته تملأ وجهه .

حاولت البكاء ، ولكن عيناى لم تتعود ذلك ، جلست مستندة لحضن الحائط قليلاً ، دخل " موسا " فعدت لهدوئى مجبرة .

نظرت لسلة أشيائى الراقدة فى سلام لا تعى ما ينتظرنى وينتظرها ، و لـ " موسا " ، وصمتى يفترس كلماته .

المقارنة فرضت نفسها بشكل مطلق على تفكيرى ، منزلنا الذى بنيت معظم حوائطه من البوص المكسو بطبقة طين ، وأخى وزوجته يحجمان فيه سلطتى ، ومنزل " موسا " المهدئ لضيق نفسى ، أما الـ " بر - عا "[١] هناك يذكر كل المنازل بشموخه ، ووضعى كفتاة فقيرة تسكن دربًا منسيًا ، أو زوجة لـ " موسا " متوجة على عرش وهمى ، أم أميرة لها كامل سلطانها ، تأمر وتنهى شعبًا بأكمله .

---

(١) برعا : قصر الحاكم .

تحرك الشيخ في الحجرة ، وكل ما فعله هو إنزال سلة عظامى من مكانها على المنضدة إلى الأرض ، بعد أن فحص العظام بمرآه لها إطار مستدير ، تطل منها عيناه عليّ كبيرتين .

لم أهتم بما فعل ، نخرنى سوس يأسى حتى النخاع ، كنت أعلم أن الغضب لن يجدى ، صار الغضب نفسه كنطح الجبل . دَخَلَت زوجته الممتلئة إلى حجرته ، ، ثم دار بينهما الحديث التالى :

- هل وجدت ما تنشده فى هذه العظام ؟

أجاب دون أن يرفع لها وجهه :

- لا .. يجب أن أبحث عن عظام أخرى بها المواد التى أبتغيها(١) ، أما هذه العظام وإن كانت من قرون موغلة فى القدم ، لكنها لم تحنط كما يجب ، ربما كانت هذه العظام لفقيرة .

قالت وقد أحست أنها وجدت ما تريده :

- إذن لن تحتاجها ؟

---

(١) يقصد بها مواد التطهير المستخدمة فى التحنيط ، فصمنت عظام الموميات واستخدمت لعلاج الأمراض الجلدية فى عصر لاحق للعصور الفرعونية .

قال لها : لا .

فعادت : سوف أرسل لك الخادمة لتحملها وتلقى بها فى الفناء الخلفى .

خَرَجت دون حديث آخر ، قليلا وحملت الخادمة سلة عظامى إلى فناء مكشوف ، قام الفرن فى جانبه مظللاً بعريشة من سعف النخيل المحمول على أعمدة رفيعة من الآجر ، أما الجانب الآخر للفناء ، فكان مخصص لحيوانات المنزل ومظللاً أيضاً بعريشة مشابهة ، وبالقرب باب مفتوح يفضى إلى الزروع .

ذكرنى هذا الباب ببابنا المواجه للزروع أيضاً ، وتسللى بثوبى الذى التمع فى عيون من قابلنى ، ذهبت إلى أقرب صديقاتى ، حدثتها عن رغبتى فى العودة للعب معهن ، متعللة بأن ما شغلنى عنهن أعمال المنزل الكثيرة ، سألتها عن أحوال باقى صديقاتى ، حقيقة لقد كانت مقابلتها لى فاترة ، ما أدهشنى أنها لم تشر إلى ثوبى أبداً كأنها لا تراه ، كأنها مازالت ترانى عارية ، لم أدر حقيقة ما يدور بداخلها ، ولكنى لم أترك الفرصة ، قلت لها إنه باقى نسيج أعطاه لى أخى - حصل عليه نظير عمله لدى الحاكم ، فحاكته لى أمى ثوباً ، وضعت كلماتى فى فمها ؛ لتنطق بها مع باقى صديقاتها ، وتخبرهن مصدر الثوب ، فتبرأ ساحتى .

مرت الأيام بعد ذلك وبمرورها يفقد الثوب بريقه ، لم يحقق لأمى ما تمنته ، أما قلقى فقد زاد كلما فقد الثوب اهتمامه لدى العامة ، كنت كالقمر يطلب الناس ضوءه فقط ، أما القمر نفسه فكان صعب المنال ، هل هذا التشبيه انطبق علىّ بالفعل ؟ لا أدرى ولكن الأنظار كانت تنهال علىّ إذا ما مررت ، ولا تطلبنى إذا لم أمر !

لم أهتم بفقدان بريقى فى مجمع العامة ، أما أملى فى العبور على جسر آمالى إلى النبلاء فقد تزايد باطراد مع فقدان العامة لاهتمامهم بى .

هل رفعنى ثوبى بعيداً عن آمالهم ؟ هل اكتشف الناس مصدر الكتان ، فلم يعد بصمة وصار وصمة ؟ أسئلة كثيرة دارت بعقلى ، ولم أجد لها إجابة .

لم تتوقف رحلات أمي الليلية ، تعودت على اختفائها فى الليالى الحالكة ، لذا حينما فاجأتنى بثوب جديد تماما ، لم يكلفا سرقة الكتان والنسيج والحياكة ، لم أندهش ، ولكن فرحتى قلت !

زوجة أخى لم تعد ترقد فى حجرتها ، بل فى أفكارى ، كنت أراها دوماً تتحرك فى عقلى ، وتخرج لى لسانها .

لم تحضر صديقاتى كما كنت أرغب ، لمحتهن فى عيد الربيع وقد تجمعن قبل الشروق للاستحمام فى النهر ، ودعك أجسامهن " بالغبيراء " وددت لو أخرج لهن عارية - كما كنت - فأشاركهن مرحهن ، لكن قدميّ لم تأخذانى لمكانهن ، بل ذهبت بعيداً ، سبحت وحيدة إلى أن مللت المياه ، فخرجت من النهر ، والمياه تقطر من جسدى كالدموع ، وترسم على الأرض اتجاه سيرى ، عدت إلى المنزل أنعش بجسدى العارى الهواء ، وعندما وصلت فاجأتنى أمى قائلة :

- أين ثوبك ؟

استدركت الأمر ، وأرسلت أحد أبناء أخى ؛ لإحضاره .

- ١٣ -

لن يرتقى وصفى لبهاء الاحتفال ، ربما سيقلله ، والمركب الذهبى اللامع يحرص على بقاء صفحة النيل هادئة ، لم أصاحب العازفات ، ولم أغن ، بل بأمر الكاهن الأكبر - صرت المشرفة على الاحتفال كله ، بارتفاع إصبعى تبدأ جميع العازفات فى العزف ، وبذات الإشارة يبدأ المغنون ، وبإشارة عينى يتقدم " موسا " ؛ ليقدم هداياه ، ولكن لوصف الاحتفال يلزم وصف المكان ذاته .

قسم حيزوم[١] المركب إلى ثلاثة أقسام ، تصدرها الحاكم وزوجته التى تزينت بالألوان فى صفحة وجهها وشفتيها ، أما الملابس فكانت من أفخر ما رأيت ، جلس جوارها الحاكم وقد صاحبه وقاره وهيبته ، يمسك بيده " الأواس "[٢] وبالأخرى المقمعة[٣] ، وقد ارتدى النمس الكتانى ؛ ليقيه حر العراء .

جلس خلفه الكاهن الأكبر وقد انحسرت نظراتى عنه تماما ، فلم أشاهد سوى شبحه ، أما الكهنة المرتلون ، جلسوا فى القسم الاخر ، وفى مواجهة الحاكم وزوجته .

---

(١) حيزوم : صدر المركب .

(٢) الأواس : الصولجان .

(٣) المقمعة : من شارات الحكم .

فرغ الجزء الأوسط للعروض المتغيرة ، والكوثل[1] والشراع يظلله ، بارت العروض بجمالها طبيعة المكان ، لم يكن لى مكان محدد ، ولكنه تغير وفق هواى ، ولم تكن لزينتى البهرجة التى كانت لزوجة الحاكم ، اكتفيت فى المساء السابق للاحتفال بدعك جسدى بالعجينة التى أعددتها من القمح نصف المطحون ، والماء الساخن ، فرشتها على جلدى ، فلملمت منه الشعيرات الزائدة ، وتركته لامعاً ، ثم أكملت له زينته بالماء وملح النطرون ، أما الدهان ، شكرت لأم " موسا " ما زودتنى به سلفاً .

كان للاحتفال خطته التى رسمها الكاهن الأكبر له سابقاً ، سارت بالنظام والبهجة التى تمناها له ، فلم يخدش جمالها خادش ، وكنت من البساطة والثقة بما جعلنى بؤرة الاحتفال ، صدق حدسى كله فكنت نفس الفتاة التى حصدت أنظار العامة فى السابق ، وما النبلاء سوى عاديين يجذبهم جمالى وثقتى .

شق الاحتفال وجبة الظهيرة التى أشبعت البطون ، ألقى بالباقى للأسماك ، حقيقة كان من الممكن أن تظل تفاصيل الاحتفال ملتصقة بذهون الذاكرة ، لكن ما حدث بعده طغى على ما سبقه ، وهو الأجدر بالتذكر .

انتهى الاحتفال قرب الغروب ، شققت الهواء عائدة إلى المقصورة القائمة فى أول المركب ، والتى كانت عبارة عن قوائم خشبية تمجد لصانعها يده الماهرة ، مسقوفة ببراطيم[2] من خشب الأرز ، مغطاة بطبقة

---

(١) الكوثل : عمود الصارى .

(٢) براطيم : ألواح

من الذهب ، وسط السقف كانت الشمس المستديرة ، وأذرعها الممتدة مسيطرة ، مدلى منها الستائر التى تداعبها الريح القادمة من الشمال ، كانت هذه المقصورة مخصصة لراحة فتيات المعبد ، فى تلك الفترة التى ينتهى فيها الاحتفال ، ولم يصل المركب لمرساه أمام قصر الحاكم .

على أريكة مريحة وناعمة أسندتُ جنبى نصف استنادة ، لم أكملها ، من نفس شق الهواء دخل الكاهن الأكبر يدعونى بيده ، أجبرت عينىّ فنظرت له ، سرّ لى بما رسم البسمة على شفتىّ .

فى طريق عودة الفتيات إلى المعبد ، سبقهن الموكب المهيب لزوجة الحاكم . أما الكاهن الأكبر ودماؤه المتدفقة إلى صفحة وجهه تعكرها ، فسار أمامى حيث الحاكم الذى أمره بإحضارى ، مثلت أمامه فى مقصورة المركب - والتى تضائل جمالها أمام المقصورة الأولى - متكئًا على الأريكة ورأسه بين مسند الرأس الآبنوسى ، وجرار النبيذ ، وصندوق كتاب الموتى وحيدة بركن قصى ، أمرنى بالتقدم وقد خفق قلبى - ر غم ثقتى - خفقانه الشديد قائلاً .

- هل لهذه الهدايا صدى بنفسى ؟ إن مخازنى لمثقلة بأروع منها لم أجب ، هل كان لسواله إجابة ؟

عاد إلى حديثه ، وقال :

- أجيبينى يا فتاة ، ما هى أفضل هدية وقعت عليها عيناى اليوم ؟

كنت مدركة لكل حديثه ، ولكنى تصنعت السذاجة المفضلة فى هذه الحالة ، وقلت :

- إن عقلى الصغير يا مولاى لايبارى عقلكم الكبير فى أفكاره .

قهقهة ضاحكاً ، فطن لوجود الكاهن الأكبر ، فأمره بالانصراف ، عاد لى بكل وجهه ، وقال :

- أنت أجمل هدية وقعت عليها عيناى اليوم .

ظهرت ابتسامتى رغماً عنى ، كانزلاق ثمرة ناضجة من شجرة امتلأت ثماراً ، وذهبت لمن يريدها ، عقلى المتقد لم يغفل فعل النبيذ والهواء المنعش برأسه ، ولم يضع الفرصة ، فقلت له :

- وما أنا سوى خادمة بالمعبد ، أجاور ساكنى الحجور ، ودواب الأرض .

قال : إذن يكفيهم ما استمتعوا به ؛ لينعموا بالسعادة ، من الآن ستجاورينني ، فهل وفقت فى اختيار الجار ؟

لم أجب ، هل ما قاله لى هذيان ؟ هل طرح الربيع ألوانه عندى ؟ هل قبول الحاكم أسهل من قبول الكاهن المتغطرس ؟ هل كان الحاكم يوماً من بسطاء الحقول ؟

قلبت هذه الأسئلة بصفحات عقلى ، كلما طويت صفحة واجهنى سؤال آخر فتخطيتها لموقفى الآن ، وتساءلت ماذا يطلب الحاكم منىّ ؟ أمعنت فى استنزاف كلماته ، رددت سهام شكى بدرع صراحتى قلت له :

- مولاى أنا لن أكون محظية ، هذا دور أكره القيام به ، هذا إن سمح مولاى لى بالحرية .

فأجاب : وإن لم أسمح؟

لانت ملمحى ، صار لصوتى صفات التوسل ، وأجبت :

- ليس أمامى سوى الانصياع لما تأمر .

بدل ملامحه الجادة بملامح حانية وقال :

- إذن فلنأمر للكاهن الأكبر وأحد الكتبة بالمجيء ؛ ليسطر وثيقة زواجنا .

قلت وإصبعي مشرعة له ومصاحبة لحديثي :

- وأخي " رخميرع " إنه قا ئم على أمري .

قال وابتسامته الحانية تتابع إصبعي :

- " رخميرع " يجب أن يحضر أيضاً .

في المســاء اتخـذت كامل زينتي كعروس تزف لحاكم ، بمعرفة زوجته أو بغفلتـهـا ، كررت فـعل الليلة السابقـة من عـجـينة القـمح ذاتهـا ، والاستحمام بالماء والنطرون ، ولكن الوصيفات قمن عني بفعل كل شيء ، تولين رحلة تزييني لأول مـرة ، هذبت الخـادمـة بملقـاط فـضي صـغـيـر شعيرات الحاجبين الخارجة عن حدودهما ، رسمت عينيّ بالكحل كعين ظبي ، أحضرت " حُقًّا " به مسحوق أحمر فرشته على وجنتيّ ، دعكته بنعومة ليشملهما ، أما يداي وقدماي فقد دخلتا في عجينة الحناء ، من " حُق " المرمر الموضوع في الصندوق الكبير القائم بركن الحجرة ، دهنت بشـرتي بالعطور المخلوطة المعـتـقـة ، في النهـاية ناولتني الخـادمـة المرآة البرنزية التي أكدت لي جمال صنعهن ، وجمالي .

عندمـا انـتهت الخادمات أمرتهن بالانصراف ، سرت علي مسـامـيـر قـدميّ ، أفـحص الصندوق الحـاوي لمواد الزينة ، وأضـحك ؛ فـالصندوق المهـدى لي من أم " مـوسـا " ، والمنسي هناك بحجرة الأواني في المعبـد أشبه بنموذج الإيضاح المصغر بالنسبة لهذا الصندوق .

بمجرد الانتهاء من زينتي ، أرسل الحاكم في طلبى ، ما إن دخلت القاعة الرئيسة بالقصر حتى واجهني " موسا " على الأريكة ، جلس القرفصاء ولوحه مفرود على قدميه ، والريشة بيده ؛ تأهباً للكتابة ، فى مواجهته كان الحاكم ، والكاهن الأكبر ؛ و " رخميرع " بانتظارى .

انتهت مراسم الزواج . أكثر ما بقى من آثارها تلك الصُفرة الزاعقة كالزعفران والتى كست وجه " موسا " ، وفاضت .

أما " رخميرع " .. كان وجهه كحجر الجرانيت ، انصرف بعد انتهاء المراسم مباشرةً ، فلم يتح لى فرصة السؤال عن أمى ، أما الكاهن الأكبر ، لم تسقط عليه نظراتى ، مثلما لم تسقط عليه فى الاحتفال ، لكن أسباب انحسار نظراتي اختلفت ، فلقد انحسرت عنه نظراتى في الاحتفال لإحساسى بالتضاؤل ، أما الآن غمره تجاهلى واحتقارى حتى أذنيه !

- ١٤ -

كان للمكان الجديد ميزة كبرى ، أطلت السماء صافية ، والشمس تجدف فيها بشقة حتى شملنى شعاعها ، اخترقتنى حتى النخاع ، بدأت فى الدعاء وتلاوة التعاويذ ، كيف لا أتلو والشمس الحانية أسقطت لى سُلّم أشعتها قوياً ! ، تبسمت الشمس في السماء ، فاستبشرت خيراً ، والحركة تدب فى منزل الشيخ رويداً ، فللشمس فى هذا الموضع من السماء تأثيرها لإيقاظ النائمين !

أيقظتنى يد الشمس ، تسللت أشعتها من نافذة حجرتى بالقصر ، خرجتُ للشرفة المطلة على النيل والجبل فى البعيد ، ومقابر العامة فى الجهة الأخري ، تُرى كيف حال أمى ؟ تخوفت من السؤال عنها فيدرك الحاكم حالها ، تركت موضوعها منسيًا ، لكنه يطفو بين الحين والآخر ، أو عندما أبُصر موكبًا جنائزيًا متجهًا لمقابر العامة ، أما وصيفتى الوفية ، فلقد أمرتها مرات بالذهاب إلى منزلنا وتزويد أخى وأولاده بما يريدون ولكنى حرصت على ألا تشتمل هداياىّ على مستلزمات لزوجته .

تضاءل إحساسى تجاه زوجة " رخميرع " تدريجياً ، ألهانى ما اعتزمت على تنفيذه لإنعاش نفسى وبناء مجدى عن كل أحاسيس حنقى السابقة ، لن أفكر فى إظهار نفسى ليروا ما وصلت إليه ، يكفيهم منى التجاهل .

كم مر من الوقت وأنا سعيدة ، وحمرة النعيم تسيل وتفيض ، ووصيفاتي يتجمعن صباحاً فيتبارين لإظهار جمالي وتزيني ، أخرج إلي فناء القصر الخلفي حيث المثّال بانتظاري ، أجلس أمامه وقتًا يسمح له بدراسة صفاتي التشريحية الدقيقة جداً على حد قوله ، والتي سوف تتيح له إخراج تمثالي ؛ ليضاهي الحقيقة جمالها ، كان شابًا قويًا أسمر ، ذراعاه مفتولتا العضلات ، والإزميل في يده ، يخيف به صلابة الحجر ، فيلين له .

قررت أن أخصص اليوم الأول من كل شهر لمتابعة العمل في مقبرتي بتاج الجبل ، والتي سمح لي الحاكم باختيار مكانها ، اخترتها في الوسط بين مقبرة الحاكم وزوجته الرئيسة ومقابر أولاده ، كان المكان أشبه بدرة التاج ، داعبتُ الحاكم بهذه الملاحظة ، فأطلق عليه درة تاج الجبل .

أسعدني حاكم الإقليم كثيراً في احتفالات النسيء [1] ، وحينما يختفي الحاكم ليسعد زوجته الأخرى ، أوكل مهمة إسعادي لنفسي ووصيفاتي والعاملين عندي ، بل ولشعبي جميعه .

ذهبنا في رحلات الصيد للفيوم الجميلة ، يغرز الحاكم رمحه بقوة في أفواه أفراس النهر المهاجمة ، فيصيبها في مقتل ، استطعت اصطياد بعض الطيور حينما سَقَطت في الشراك التي نصبتها لها ، وشاركني الحاكم شواءها .

---

(١) النسيء : خمسة أيام في آخر السنة مخصصة للأعياد .

وصل التمثال لمراحله الأخيرة ، كان لابد لصقله من رمال خاصة يستجلبونها من سرابيط الخادم[1] ، استعان المثّال بكل براعته وقوته ، كلما تأكد الحجر من تفوق يد المثال استسلم ، فخرج التمثال مشابهاً لي تماماً .

كان لحاكم الإقليم نظراته اتى لم تريحني موخراً ، سألني لأول مرة عن انقطاع زيارة " رخميرع " ، ولكني أجبته بثقة : إن تدني وضعه الاجتماعي يحرجه في الظهور أمام الحاكم ، لم أقلق ، لكن سؤاله التالي أثار بداخلي الاضطراب ، فقال :

- وكيف حال أمك ؟

أجبت بكلمة واحدة ، سألته بها عن كل ما ساورني من اضطراب

- أمي ؟

انصرف ، لكن الأفكار لم تنصرف وراءه .

زاد تجهم الحاكم في أعياد الربيع ، جهر بكل ما كَنّهُ داخله من ضيق تجاهي ، ولكنه لم يجهر بالأسباب ، هل كنت أقل من مصارحته لي بالأسباب ، وأنا التي كان لي الكلمة المسموعة ، وإذا ما ظهرت انحنت لها قامات الجميع ؟ لم يكن لرحلة المركب مذاق ممتع ، اختصر الحاكم الرحلة رغم امتداد صفحة الماء أمامنا ، ورغم محاولاتي لاختراق تجهمه

(١) سرابيط الخادم : منطقة في سيناء .

وإذابته ، أرسلت بصرى هروباً من نظراته المسلطة إلى ضفة النهر حيث الأزهار والبردي ، نفس المكان الذى التقيت فيه و " موسا " ، يداعب كلانا الآخر برشه بالماء ، يشنف أذنيّ حديثه الناعم ، ويرعش يديَ بحراره يده ، عدت بوجهي لمكان الحاكم ونظراته تثقبني كسهام مسنونة ، وتفتش بداخلي عن شيء يريده ، هل اكتشف علاقتي السابقة " بموسا " ؟ فالكاهن الأكبر مطلع على كل الأمور . هل علم ما حدث بيني وبين الكاهن الأكبر ؟ خاصة وأن كاهن الموسيقى عليم بما يحدث ، هل وصله حال أمي وحكايتها مع حارس كتانه ؟ أدركني يا " رع " ، انثر عليّ من الطمأنينة القطرات لأهدأ ، في الصباح التالي ، أرسلت خادمتي إلى المعبد بلفائف الكتان ، وهبتها لكلل الفتيات العرايا بالدروب المنسية ، وفتحت الـ " شنوتي "[1] لمن يريدها .

قربت المقبرة على الانتهاء ، كان لها من البهاء ماليس لمثيلاتها ، فاقت مقبرة الحاكم نفسه ، ومقابر زوجته وأولاده .

تحاشيت الحاكم تماما هذا الصباح ، لم أسمح للصدفة أن تجمع بيني وبينه ، تمنيت أن تأتى الأيام التالية بانفراج حاله ، وعودته لسابق عهده معي ، أما دار أبديتي التى لم تسمح لعقلي بالتفكير في سواها ، فاستحوذت على معظم تفكيرى وهونت على غموض الحاكم .

احتفظت بتلك الابتسامة ذاتها - التى انفرجت عنها شفتاى وأنا أتفقد المقبرة صباحا - إلى المساء ، على سريرى ويقظتي تغلب نومي وصلت لتلك المرحلة من الرضا والسرور عن حال المقبرة والتى لا أستطيع وصف زهوتها ، تذكرت موكب جدتي الفقير ، أما أنا فدرة التاج لى ، وليس لسواى .

---

(١) شنوتي : الشونة .

أغمضت عيني ، ونومي يغلب يقظتي ، والشعور بالرضاء يكتسح حواسي ، ودرة التاج بين جفني راضية بما تم فيها ، ممنية نفسي بالأحلام الجميلة ، بموكب يضاهي موكب الحاكم ، بل يتفوق عليه ، بكل بهائي وجلالتي ، بشعب يقف أسفل شرفتي يبتهل لي قبل " رع " ، بمحفتي المحمولة على أعناق خدمي ، تسير إلى مقبرتي ، ألقي أوامري بشأن أوضاع أثاثي الجنائزي ، بهامتي التي أمرت النقاشين بتصويرها بنفس حجم صور الحاكم ، وتزيد .

لم تأت الأحلام الجميلة رغم ما وصلت إليه من رضا ، ما الذي أعاق قدومها ؟ رغم ما أنعم به من جلال فللأحلام مذاقها .

استيقظت على الغدر بي ، والأحلام لا تراود قتيلة ، وخنجر مجهول في جنبي ، من قتلني ؟ أنا لا أستحق القتل ، أراهم وهم يجردونني من الحلي ، خاتم هويتي وجعراني الذهبي فقط هما اللذان سلما من أيديهم ، أراهم وهم يصبون على القار اللزج ، ويلفون على كتانهم كحيات قلقة ، أرقبهم وقد أهالوا الرمال بأقدامهم ، وذهبوا .

كم عاما مضى بعد ذلك ؟ بل كم من الأعوام ؟ لا أدري ، ولكني أرقد في فناء الشيخ منذ يومين ، أشرقت آمالي ، وغربت مرتين ، وها هي تشرق من جديد .

انفتح باب المنزل وخرجت للفناء المرأة الممتلئة ، قدمت الخادمة تحمل وعاء العجين الذي يشبه بطن الحبلى ، أنزلت الوعاء أمام المرأة التي بدأت في صنع الأرغفة بيدها الكبيرة ، تشكل العجين كرات صغيرة ، تتركها للشمس تباركها ، فيزداد حجمها ، أما الخادمة فقد قلبت سلة

عظامى لتجاور فوهة الفرن المشتعلة ، اتسعت حركات الخادمة لتشمل المكان كله ، كنت أرقبها قلقة ، تنبأت بما سوف تفعله ، ألسنة النيران يتطاير شرارها مشيرة إلى ، أغيثونى ، لا أريد الاحتراق ، لن أصير رمادا ، إن مكانى ليس هنا ، إنه هناك ، أنا صاحبة درة التاج ، أنا زوجة الـ " حاتى - عا "[1] ، أنا الـ " نبت - حاسوت " ، وأنا الأميرة ...... أنا .... ، و ....

(١) حاتى - عا : الحاكم .

صدر من الكتاب الأول

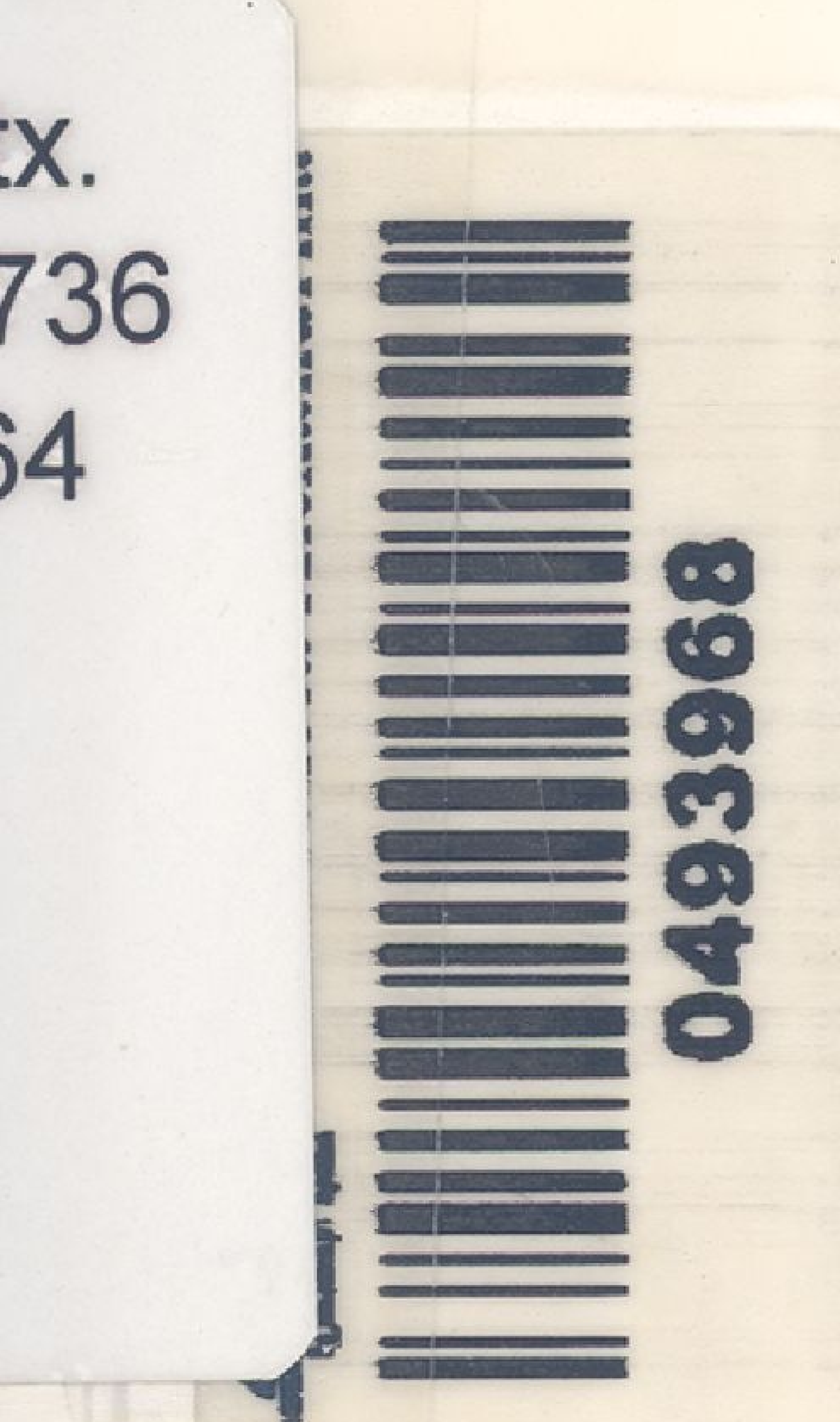
١ - صحراء على حدة	قصص	عاطف سليمان
٢ - دراسة فى تعدى النص	نقد	وليد الخشاب
٣ - حدث سراً	قصص	أمينة زيدان
٤ - رسوم متحركة	شعر	صادق شرشر
٥ - ليس سواكما	شعر	عبد الوهاب داود
٦ - احتمالات غموض الورد	شعر	طارق هاشم
٧ - تدريبات على الجملة الاعتراضية	قصص	مصطفى ذكرى
٨ - كلوديوس	مسرحية	محمد السلامونى
٩ - مسرحيتان من زمن التشخيص	مسرحية	محسن مصيلحى
١٠ - لكن	شعر	هدى حسين
١١ - أحلام الجنرال	مسرحية	محمد رزيق
١٢ - حفنة شعر أصفر	قصص	محمد حسان
١٣ - يستلقى على دفء الصدف	شعر	عطية حسن
١٤ - النيل والمصريون	دراسة	حمدى أبو كيله
١٥ - الأسماء لا تليق بالأماكن	شعر	عزمى عبد الوهاب
١٦ - العفو والسماح	قصص	خالد منتصر
١٧ - ناقد فى كواليس المسرح	نقد	مصطفى عبد الحميد
١٨ - أطياف شعرية	نقد	عبد الله السمطى
١٩ - أنا	نصوص	غادة عبد المنعم
٢٠ - سارق الضوء	قصص	ليلى أحمد
٢١ - رجع الأصداء	نقد	جليلة طريطر
٢٢ - شروخ الوقت	شعر	ماهر حسن
٢٣ - أغنية للخريف	قصص	عاطف فتحى
٢٤ - بائع الأقنعة	مسرحية	صلاح الوسيمى
٢٥ - أفراخ الحمام	قصص	شوقى عبد الحميد
٢٦ - كوجهك حين ارتحال الصباح	شعر	خالد حمدان
٢٧ - وشيش البحر	رواية	أمانى خليل
٢٨ - ناصية سليمان	قصص	مجدى حسنين
٢٩ - أغنية الولد الفوضوى	شعر	محمود المغربى
٣٠ - سؤال فى الوقت الضائع	قصص	مدحت يوسف

٣١ - كرحم غابة	شعر	خالد أبو بكر
٣٢ - الآخر	مسرحية	ياسر علام
٣٣ - جمر الأصابع	شعر	أشرف يونس
٣٤ - سقوط ثمرة وحيدة	قصص	حسن صبرى
٣٥ - أمسيات عائلية	شعر	سعيد أبو طالب
٣٦ - ملامح وأحوال	نقد	ناصر عراق
٣٧ - كتابة الصورة	نقد	محمد مختار الجنوبى
٣٨ - نتاج الخوف	مسرحية	ناصر العربى
٣٩ - عناصر الإضحاك فى مسرح بديع خيرى	نقد	محمد زعيمة
٤٠ - أولى أول	حكايات	محمد ناصر على
٤١ - وهج الكتابة	نقد	حسان بورقية
٤٢ - البت مصرية	قصص	مصطفى الشافعى
٤٣ - قبيل اكتمال القرن	رواية	ذكرى نادر
٤٤ - تجرى بسرعة فائقة	شعر	سحر سامى
٤٥ - تفكيك الرواية	نقد	فتحى أبو رفيعة
٤٦ - نفس طويل	قصص	راندا طه
٤٧ - الميتامورفوسيس فى المسرح الحديث	نقد	مروة مهدى
٤٨ - فى السنة أيام زيادة	شعر	جمال فتحى
٤٩ - ماتحاولش	مسرحية	مصطفى سعد
٥٠ - الفن الفطرى فى مصر	نقد	ضحى أحمد
٥١ - كائن خرافى غايته الثرثرة	شعر	نجاة على
٥٢ - لون هارب من قوس قزح	رواية	منى الشيمى

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢٠٠١/١٥٨٦٤




0493968


المجلس
الأعلى
للثقافة